الباب الحادي عشر

الشيخ: ضرورته - إعداده

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الشيخ وأهميته، ضرورته

أهمية المربي عامة

لا أحد يختلف حول قيمة المربي ودوره العظيم في صنع الأفراد صنعًا ينمي الجوانب الإنسانية كلها فهو الذي يتفاعل مع تلميذه تفاعلاً مثمرًا، وهو الذي ينقل ما لديه إلى الملتفين حوله من طالبي التعلم وهو الشخص الوحيد الذي يقف على حاجات المتعلم ويلبيها، وينميها، ويدعم النظر في تلميذه كل وقت ويتطلع إلى أعماقه، وإلى ظاهره، ويراقبه في تفكيره وحركاته ويرشده ويصحح له أو يشجعه ويدفعه ويبصره بين الحين والحين ليقومه.

ويضع المربي في ذهنه أنه مسئول عن تلميذه علمًا وخلقًا، أيًا كان نوع العلم الذي يقوم بتدريسه، وأعظم ما يَسُرُّ المربي هو متابعة المتعلم له ويقظته ونباهته، وتقدمه واستيعابه، وكم يعجب به وهو يناقشه مناقشة صريحة تظهر فيها شخصية التلميذ وقدرته، وطاقاته، ورغبته في الاستفادة من أستاذه.

والشخص الوحيد الذي لا يحقد على الغير هو المدرس، لأنه يستمتع بنبوغ الآخرين وتفوقهم سواء أكانوا في درسه أم في درس آخر، وسواء أشارك هو في تربيتهم أم لا ، إذ هو ناظر إلى ذاته كمدرس وإلى غيره كتلميذ، والمدرس القدير النابه هو الذي تتسع ثقافته كل يوم ويتعلم من جميع ما يحيط به ، ويستفيد من كل المواقف ويضيف إلى علمه جديدًا كلما تحرك يمينًا أو شمالاً، فهو بئر عذب تصب فيه المياه النقية لتطهره، وليرتوي منها الآخرون بلا استعلاء أو استكبار، ولا رغبة في التسلط، ولا تجمل لأحد، ولا انتقاص من أقدار الآخرين أو طاقاتهم مهما كانوا سنًّا أو ثقافة.

فهو المعلم الدءوب، والمتعلم المستفيد، والمربي المتواضع، والخير المتواصل، والمبتسم في ساعات الضيق والمتأمل وهو يعلم، والساقي وهو يشرب والحادي وهو يشارك، والقائد وهو منصت، والمملي وهو يستمع، والمعطي وهو يأخذ.

وهو الذي يرى نفسه في أنفس الآخرين، ويرى نفوس الآخرين في جوانبه، لا يرى نفسه فقط وإلا كان متسلطًا. ولا يرى نفوس الآخرين فقط وإلا كان محوا فارغا، وكان قحلاً لا يصلح قائدًا، واتسعت آفاق نفسه بتجاربه مع نفوس الغير المتعدد الذي يلتقي به في ساحة التعلم أي إنه كان فردا له ثقافة وعنده فكرة فلما اتصل بالطالبين وتعرف على نفوسهم، وانشرح لهم انفتحت نفسه واتسعت أرجاؤها، وكلما تعرف على الكثيرين كلما حفل بآفاق نفسية جديدة، وبذا يصير كلاً في واحد ونفوسًا في نفس، ومعارف في معرفة، وقدرات في طاقة، وتطلعات في خبرة، ورغبات في غاية، وآمال في رسالة، وأعمال في مهمة.

والمربي أو العالم أو المدرس هو الذي يدل الغير على ما يفيده دينا ودنيا، وحياة وآخرة، نفسًا وقلبًا وبدنًا، وعلى ما يصلحه في نفسه ومع غيره ومع الله وفوق كل شيء، ولاشك –ما دام كذلك– فإنه تتفاوت درجة أهميته تبعًا لنوع العلم الذي يقوم بتدريسه، ومقدار نفعه، وامتداد الفائدة منه، وصلة هذا العلم بالنفس وإصلاحها والقلب وتزكيته، والأخلاق وتهذيبها والمعرفة الراقية وتنميتها، فكلما كان موضوع العلم ومسائله على درجة كبيرة من اليقين، وكان نفعه ممتدًا في الحياة والآخرة وكانت مهمة المدرس أو المربي أسمى وأجل، وأعمق وأدق وأصعب وأشق، لأنها تتطلب سعة في العلم، وحذرًا فى الإلقاء، وورعًا في الفتوى، وتحرزًا عن القول بلا علم.

ولا شك أن جهل مسألة مع القول بها عظيم الخطر لتوقف أعمال الناس عليها، ولتعبدهم بها وطاعتهم على ضوئها، وخطرها لا يتوقف على القائل أو

المستمع بل يتعداهما إلى كل من وصلت إليه، كما أن مهمة الإلقاء الديني أو التربية الدينية لا تتوقف على مجرد العلم وسعته فقط بل تقتضي الصدق والإخلاص في العمل، والوقوف على أغوار نفس الطالبين ومراقبة دوافعهم النفسية، ومنابع الخير أو الشر عندهم مراقبة دقيقة كي يعطي لكل منهم على قدر ما لديه «**أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم**» حسبما بين سيد المرسلين ﷺ.

وهذا بعكس المدرسين في العلوم الدنيوية فإن مهمتهم أقل خطرًا وأدنى مشقة لأنها لا تتطلب منه إلا مجرد الإلمام الجيد بمسائل العلم الذي يقوم بتدريسه مع مراقبة التلميذ ومشاركته وتوجيهه وإفادته، وأصعب حالة في مهمة التربية عندما يكون المربي متوجهًا إلى أغوار النفس ذاتها يتحسس دوافعها، ويتعامل مع نزعاتها ويقوم بترويضها، والنفس كما هو معروف عالم فسيح مليء بالتشابك والتعقيد، والتغير والتقلب، وهي متفاوتة لدى الفرد من سن إلى سن، ومن ظروف إلى ظروف، ومن وقت إلى وقت كما هي متفاوتة بالنسبة إلى الأفراد طبقًا للبيئات والأعمار والظروف والمنازع والأهواء والرغبات والمطامع والغايات والأعباء الملقاة عليه.

من هنا فإن مهمة التربية الصوفية تبدو صعبة للغاية عندما ندرك أن الشيخ الصوفي متدين فلا بد أن يحيط بأنواع المعارف الدينية ويصدق ويعمل ويخلص، ويجرب، ويسلك ويتمرن، ويتهذب ويتجرد، ثم يعرف ويصل إلى آخر ما سنذكره من شروط الشيخ، بالإضافة إلى أنه سيربي نفوسًا على الاستقامة الدينية، وهو لا يربيها ليعرفها دينها فقط أو لمجرد التفقه في الدين تفقهًا يوقفه على الأحكام الظاهرة إنما سيبصره بدروب السلوك وعثراته، وسيسلكه ليوصله إلى الله سبحانه، إنه سيقطع به رحلة عبر الوجود المشاهد إلى العالم الغيبي إلى ما فوق هذا العالم ليسلم المريد إلى ساحات القرب الإلهي مخلفًا وراءه في الطريق كثيرًا من العلل والأمراض، والعثرات والزلات، وكل مرحلة في الطريق لها وقفاتها ومطالبها وضروراتها ولوازمها، وستتبين مدى الصعوبة في عملية التربية الصوفية وأنت تتحسسها معنا خلال هذه الدارسة.

مهمة المربي في القرآن

ولما كانت مهمة التربية الدينية عامة والروحية خاصة على هذا النحو من الأهمية البالغة فإننا نجد القرآن الكريم يربط بعثة الرسل صلوات الله عليهم وسلامه بها في بعض آياته فيقول سبحانه: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران:٧٩]

فقد بينت الآية ثلاث مراحل للتربية الدينية والروحية يقوم بها الأنبياء.

المرحلة الأولى: وتتعلق بإعداد المربي والعلوم التي يجب أن يتزود بها كل هاد إلى الله، وحصرها القرآن في الكتاب الموحى إلى النبي من الله، وفي منحة الفهم لأسرار الله في وحيه التي يكشفها الحق للمصطفين من خلقه والتي سماها القرآن بالحكم، ثم النبوة وما يترتب عليها من عصمة ولطف وتوفيق وحفظ، فتكون مرحلة الإعداد في الآية قائمة على الإنصات الجيد والحفظ الشامل للكتاب المنزل، وعلى الفهم والاستيعاب والبصيرة والدراية لما فيه من معنى وسر، وعلى حفظ الله للداعية وتوفيقه له.

وتأتي المرحلة الثانية: لتبين غاية التربية، وأنها محصورة في دعوة الخلق إلى عبادة الله وحده دون ما سواه، وليست العبادة المطلوبة هي هذا النوع الظاهري، وإنما هي عبادة التحقق، والإحسان ، والرقة، والشفافية، وهي عبادة الربانيين، أي الفقهاء العلماء العاملين أو الحكماء الذين يجمعون مع العلم العمل والبصيرة والبصر في الأمور والسياسة للنفوس، وهم أهل المعرفة بأبناء الأمة وما كان وما يكون، وأهل تقى وإخلاص، فعلى من نال علوم القرآن وتفقه فيها وفهمها وحفظه الله أن يدأب ويجهد نفسه في دعوة الآخرين إلى عبادة نقية هي عبادة أهل القرب.

أما المرحلة الثالثة: فإنها تبين أن الدعوة إلى التحقق بعبادة اللـــه وتوحيده هي حق العلم الذي تعلمه النبي أو المربي.

وتوضـــح أيضا أن السلوك في التربية ينبغي ضرورة أن يكون خاضعًا للكتاب الـــذي تعلمـــناه، وللوحي الذي درسناه، ولذا يقول ابن كثير: فالرسل صلوات اللـــه وسلامه عليهم أجمعين هم السفراء بين اللـــه وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة فقاموا بذلك أتم القيام ونصحوا الخلق وبلغوهم الحق[1] ويقـــول: حـــق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهًا.. ويعلم الناس على قراءة **(تُعَلِّمُونَ وتُدَرِّسُونَ)** بالتشديد.

نفـــس المراحل الثلاثة السابقة هي ما صرحت بها الآيات القرآنية في جانب بعثة الرسول ﷺ إذ يقول المولى جل جلاله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة:١٢٩] وذلك على لســـان سيدنا إبراهيم في دعوته للأميين، لما حان وقت الظهور المحمدي، والنور الأحمـــدي، والخـــتام المصطفي وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[آل عمران:١٦٤]

والكـــتاب هو القرآن، والحكمة هي الحلال والحرام أو السنة، أو الفهم في الدين ولا منافاة بينها كما قال ابن كثير، أو هي المعرفة بالدين والفقه في التأويل والفهـــم الـــذي هو منحة ونور من اللـــه تعالى كما رأى القرطبي والتزكية هي

---

(١) انظـــر تفسير ابن عباس: ٥٠، وتفسير مجاهد: ج١، ١٣٠، وتفسير القرطبي: ١٣٦٣، ١٣٦٤، وتفسير ابن كثير: ج١: ٣٧٧.

التطهير بالتوحيد، أو التطهير عامة على طريق الطاعة الشريعة والإخلاص القلبي[1].

فقد بينت الآيتان مهمة النبي في الدعوة إلى التوحيد وتعليم الفقه والتربية والتزكية وصولاً إلى الحكمة التي هي منحة الله لعباده، وتشير الآيتان كما ترى إلى المرحلة الأولى الخاصة بالإعداد وإرسال الرسول بالآيات والوحي، وإلى المرحلة الثانية الخاصة بالتعليم والدعوة إلى التوحيد، وإلى الثالثة الخاصة بالتزكية وما تثمر من حكمة على هدى من الوحي النازل واستقامة وطاعة لأحكامه، وتقديم التزكية مرة على تعليم الكتاب والحكمة وتأخيرها عنهما أخرى يدل على أنها مطلوبة في كل مراحل السير والتعلم فهي ضرورية لتحصيل الفهم في الكتاب، ولنوازل الحكمة من الله، وهي تأهيل وإعداد لهما.

والتزكية بهذا المعنى الذي تتقدم فيه عن الفهم وهبة الحكمة هي التي تدعو إلى طرح الشرك ونبذ الحجب الظلامية والنفسية وترك المعاصي كي تتهيأ النفس بعد ذلك وتصفو لتفهم وتلقن الحكمة، ونفس تلك السلسلة بهذا التدرج الذي يبدأ من دراسة القرآن والشريعة ثم السلوك والتزكية ليثمرا الفهم والبصيرة هي ما يعنيه الصوفية من وراء مراحل السلوك لهم. أما عندما تتأخر التزكية عن القرآن والفهم والحكمة فهي التزكية الشهودية التي يفتقد فيها العبد كل حس بغير أو سوى، ويحيا تحققًا بأنوار الحكمة له من الله جل جلاله وهي هدف أسمى للتربية الروحية الممنوحة عند القوم.

والهدفان المنوطان بالتزكية المتقدمة أو اللاحقة لا يتحققان كما رأيت إلا على يد مربٍّ وأستاذ سواء أكان نبيا كما حدثت الآيتان أم عالمًا نال قسطًا كبيرًا من الدراية والسلوك والتهذيب والتزكية، أم كان من أهل الإرث القرآني

(١) تفسير ابن عباس ١٨ والقرطبي ٥١٦، ١٥٠٥، ١٥٠٦، وابن كثير في التفسير ج١: ١٨٤.

الذين قال الحق فيهم: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ۖ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۖ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر:٣٢].

ومع الاعتذار عن عدم الخوض في الجزء الثاني من الآية وما فيه من خلافات بين المفسرين وهل الظالمون لأنفسهم والمقتصدون والسابقون جميعًا داخلون في أهل الإرث أو يخرج الظالمون ويدخل المقتصدون والسابقون؟ فإن الذي يهمنا هو الشطر الأول من الآية في المقام الأول لأنه يبين أن الله قد أورث القرآن من اختار واصطفى من خلقه سواء أكان اختيارًا عامًّا بالهداية أم اجتباء بالقربة فالكل أهل إرث، وأفضلهم من ورث ثم عبد وأخلص وتزكى وقرب، فلهم مزية خاصة لقربهم.

ولمن تصدر للتربية وهداية الخلق مزية أخص على جميع رتب العارفين أو الوارثين لكونهم هداة في أنفسهم هادين لغيرهم، وإذا تأملت هذه الرتبة العلية والمزية السنية فلن تجدها بكمالها وتمامها إلا في مشايخ الصوفية[1] الظافرين بالإرث القرآني والمتابعة النبوية والموهبة اللدنية، والبصيرة القلبية، والتجربة في التهذيب والتزكية.

دعوة الرسول إلى بذل العلم

لن تجد دينًا من الأديان اهتم اهتمامًا كبيرًا بالعودة إلى العلم وبنى عليه عقيدته، وسمح لعقول العلماء بالاجتهاد في شريعته مثلما تجد دين الإسلام الذي يعتبر بحق دين الوحي الكامل والرسالة الخاتمة، والنبي الذي زاده الله علمًا حتى حدث عن نفسه أنه أتقى الناس وأعلمهم بالله، ومع أن الله أنزل الكتاب

(١) الجيش الكفيل نقلاً عن بقية المستفيد: ١٢٦، ١٢٧.

وفصلـــه وبينه، وجعلـــه تبيانًا لكل شيء إلا أنه مع كل هذا قد جعل من بين آياته التي ساقها في الكتاب المحفوظ كثيرًا من النصوص التي تحث على العلم وتعلي من شأنه وترفع من قدر العلماء.

وإذا كنا في هذا الصدد نكتفي بما يخدم غرض التعليم والتعلم فإننا نشير إلى أن موضوع العلم والتعلم وما يتصل بهما قد كتب فيه المسلمون كتبًا بأجمعها[1]، ولا يخلو كتاب لـــه قيمة إلا وتناول المسألة التعلم وحث الإسلام عليها.

ومـــن هنا فإننا إذا أسهبنا فيها فيكون من باب تحصيل الحاصل ، وتقرير ما هـــو واضـــح ومعلوم من الإسلام بالضرورة، ومثل هذا الإسهاب يخل بالدراسة التخصصية، ويجرنا خارج حدود موضوعنا، ولا نسوق هنا سوى بعض الشواهد الدالة على حث النبي على التعليم مثل قولـــه ﷺ فيما يرويه ابن مسعود: «**من دل على خير فلـــه مثل أجر فاعله**» وقوله: «**ولا حسد إلا في اثنتين، رجل أتاه اللـــه مالاً فسلط على هلكته في الحق، ورجل أتاه اللـــه الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها**» وقـــال: «**علـــيكم بهـــذا العلم قبل أن يقبض وقبل أن يرفع** ثم قال **العالم والمتعلم شريكان في الأجر في سائر الناس بعد** وجمع بين أصبعيه السبابة والتي تلي الإبهام» رواه أبو أمامة.

وروى زيـــد بـــن ثابت قال:«**نضر اللـــه امرءا سمع منا حديثًا فحفظه وبلغه غـــيره فرب حامل فقه ليس بفقيه: ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم إخلص العمل للـــه، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**» وحذر الرســـول من كتمان العلم فقال فيما يرويه أبو هريرة: «**من سئل عن علم علمه فكتمه جاء يوم القيامة عليه لجام من نار**» وقال المصطفى: «**والذي نفس محمد بيده**

---

(١) انظر تفسير ابن عباس

لئن شئتم لأقسمن لكم أن أحب عباد الله إلى الله تعالى الذين يحببون الله إلى عباده ويحببون عباد الله إلى الله ويمشون بالنصيحة» ويقول: **«يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ينفون عنه تحريف الغالين،وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»** وقيل له أي الأصحاب أفضل؟ قال: **«الذي إذا ذكرت أعانك وإذا نسيت ذكرك»**.

وحدث عمارة عن والده عن جده عن النبي ﷺ قال: **«ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق بَيِّنٌ نفاقه: ذو شيبة في الإسلام، ومعلم الخير وإمام عادل»**.

التحول التربوي في المجتمع الإسلامي الأول

تحول المسلمون الأميون تحت تأثير دعوة الإسلام من مجتمع يتلقى تعليمه ومعرفته من أفواه الآباء والأمهات والأصحاب، والحي، ومن خلال اللقاءات السريعة أو الأسواق الثقافية التي كانت تقام بغرض الثقافة والشعر إلى مجتمع يعرف المدرسة في دار الأرقم بن أبي الأرقم بمكة والتجمع حول النبي ﷺ في مسجده بالمدينة، ويتدرب على التعلم والقراءة والكتابة سريعًا، ويتعرف على لغات الآخرين في أيام كما فعل زيد بن ثابت، وتسري الكتابة على الرقاع بينهم بعد أن كانوا يجهلون ذلك.

ولقد تحول المجتمع الإسلامي إلى حركة نشطة للغاية وتتوجه كلها لخدمة الدعوة، ولنشر الدين الجديد، وتتمثل تلك الحركة في وجوه متعددة: منها ما هو علمي متوسع ومتخصص في مجالات العلوم الإسلامية كالتفسير، والفقه والحديث ، والقراءة، والمغازي، ومنها ما هو حربي يتمثل في حمل السلاح والجهاد في سبيل الله، أو الرباط دفاعًا عن حدود البلاد الإسلامية، وقد تتجمع الحركتان على ساحة المعركة عندما يحمل السيف علماء أجلاء جنبًا إلى جنب مع المحاربين الآخرين، وهذا هو الغالب الأعم، وأحيانًا تتجه الحركة إلى الوعظ والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلها كما نعلم تحمل طابعًا دينيًّا، وتصطبغ بصبغة الإسلام كلية.

وما كان لأحد أن يهدأ لا سيما في الجانب العلمي والإمام علي رضي الله عنه ينادي في الناس في خطبه: أيها الناس إنما هلك من هلك قبلكم بركوبهم المعاصي، ولم ينههم الربانيون والأحبار، كلما تمادوا في المعاصي أخذتهم العقوبات، فَمُرُوا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقرب أجلاً ولا يقطع رزقًا[1]، وكذلك حث ابن مسعود وأبو بكر وحذيفة وعدي وأبو الدرداء على الجهاد قولاً وفعلاً وقلبًا[2].

وليس هذا فقط بل إن الصحابة تفرق كثير منهم يعلم في البلاد المفتوحة، واعتبر أستاذًا بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، وكون مدرسة وربى تلاميذ، وكان لكل منهم منهجه الخاص به، وطبع الطالبين من حوله بطابعه ومشربه وأشاع فيهم العلم الديني على وجه صحيح.

وعلى سبيل المثال فلقد كان ابن مسعود في الكوفة ومعاذ في حمص وأبو الدرداء في دمشق، وعبد الله بن عمرو في مصر، وابن عباس في مكة وجميعهم نشروا الجو الروحي مع العلمي على تلاميذهم، أي إن الدعوة والتعريف بالإسلام قد لبست ثوب الروحية الرقيق على ألسنة الصحابة وسرت الحياة الروحية فى أنفس المسلمين الجدد مع التعريف بالإسلام سواء بسواء، وكم نعجب من قوة تأثير الإسلام فى نفوس الصحابة، وكيف حولهم من حالة ونظام تربوي قبلي إلى

---

(١) محمد يوسف الكاندهلوي. حياة الصحابة: ج٣: ٢٩١، ٢٩٢.
(٢) نفسه: ٢٦٦، ٢٨٩، ٢٩٢، ٢٩٥.

نظام تعليمي متقدم جدًّا، لـــه طرقه ومنهجه، ومدرسه، وتلاميذه، ومدرسته.

سمات هذا التحول

وأهم ما يميز تلك العملية التربوية ما يلي:

١ـ السعة والشمول

أنهـــا ارتبطـــت بـــالدين ارتـــباطًا وثيقًا، وقامت عليه في أصولها ومنهجها ومواردها، وأحب أن أسجل هنا أنَّ ارتباط التربية بالدين لم تضيق حدودها، أو تحـــد مـــن مصادر المعرفة التي يحصل عليها الطالب، بل اتسعت ضروب التنمية الفكرية والثقافية والعملية لتشمل كل ما يحتاجه الإنسان في دينه أولاً، وفي دنياه ثانيًا.

ولقـــد راعـــت التربية في ذلك الطبيعة الإنسانية وما تحتاجه من حس وعقل وتربيتهما بما في ذلك متطلبات البدن حاجاته الغريزية والمادية، ولم تحجب التربية الدينية نظرات الأفراد عن التطلع العلمي إلى فروع المعرفة الأخرى بل سمحت لهم في ذلـــك، ومـــن ثم اتسعت المعارف وتعددت حتى قام من بينها معارف تبدو متناقضة مع روح الإسلام، ولولا سعة الروح التربوية ما قام المعتزلة بفلسفة كثير مـــن مسائل العقيدة وما استطاع رجال الشيعة أن يُدْخِلُوا ما أدخلوا من نظريات التنبي والتأليه والحلول والتناسخ.

ومنذ نشأت الفرق الكلامية المتعددة تحمل بين ثنايا فكرها ما يخالف فلسفة التربـــية وأصـــولها التي قامت أساسًا لخدمة الدين وما كان يمكن أن تتسع دائرة المعـــارف الإســـلامية في إطار التربية الدينية لتشمل هذه الفرق، وتتسع لتسمح للفلاســـفة أن يشـــيعوا أفكار اليونانين وعلومهم، وحكم الهند وفارس لولا سعة الصـــدر التي امتاز بها الإسلام ورحابة الأفق في نظرته للعالم وللإنسان وللمجتمع مع أن تلك السعة قد دفعت بالموتورين، والحاقدين، والمدعين أن يتشبعوا للأفكار

التي تتنافى مع مبادئ هذا الدين السمحة.

وأقول في النهاية: إن نظرية التربية الواسعة الشاملة لأنواع المعارف المتعددة، والتي أطلقت العنان للعقل والحس والقلب ولجميع وسائل الإدراك الإنساني كي تعمل وتستفيد وتفيد، وإن تلك النظرة التي اهتمت بالإنسان في ذاته، وفي علاقاته وفي ارتباطه باللـــه، وارتباطه بالكون، وارتباطه بالآخرين كعضو في مجتمع، والتي طالبت الإنسان بالبحث والتفكر في كل ما يخدمه دينًا ودنيا، وما يسعد الآخرين كذلـــك ورغبته في اكتساب المعارف، وجلب الحكمة أنى وجدها، والاستفادة بجميع المواقف التي يتعرض لها مع اجتناب المحرم.

تلك النظرة التربوية الفسيحة كان يمكن أن تحقق للمسلمين الخير كل الخير، ولقد أدت إلى ذلك في البداية، وكان من الممكن أن يستمر هذا الخير ويدوم لولا اســـتغلال هذه السماحة في نظرة الإسلام التربوية، وإدخال ما ليس في الإسلام، الأمـــر الـــذي أدى إلى تمزق المسلمين تحت صراعات المذاهب وتيارات الأفكار الدخلية، وكيد الأعداء من داخلنا وخارجنا.

وكـــان باستطاعة المسلمين أن يواصلوا البحث لصنع حضارة أرقى لو ظل تفكيرهم مرتبطًا على وجه صحيح بالإسلام في جوهره السليم ، لا سيما وأنه لم يفعل بالعقول مثلما فعلت الأديان الأخرى في الحجر على الفكر قرونًا طويلة حتى اضطرت تلك العقول أن تصارع نظرة الدين الضيقة وحلولـــه الساذجة لمشاكل الإنسان والحياة والكون، وحتى انتهى الأمر أن انتصر الإنسان على الدين، وفصل بين الدين والتربية، وبين الدين والعلم، وبين الدين والحياة.

لا يجوز الفصل بين الإسلام والتربية

وإذا قرأنا في كتب التربية الحديثة مثل كتاب فلسفة التربية لفيليب فينكس، أو فلسفة التربية للدكتور النجيحي، أو التربية الحديثة مادتها، ومبادئها للأستاذ صالح عبد العزيز، أو كتاب التعليم لسميث أو أصول التربية للدكتور مطاوع، أو أصول التربية الحديثة لوايلدز وكينيث وجدنا أمرًا ظاهرًا في كل هذا وغيره، وجدنا الشكوى المرة من رجال التربية الغربية من العهود التي سيطرت فيها الكنيسة على التربية، وكيف كانت الفلسفة التربوية مقصورة محدودة، ولمسنا بأيدينا أنهم لا يستطعون إخضاع العملية التربوية للدين في هذا الوقت نظرًا لعدم اتفاق اثنين من التلاميذ في عقيدة واحدة أو في فكرة واحدة نحو العقيدة حسبما صرح بذلك فينكس في كتابه في الفصل الذي عقده عن علاقة التربية بالدين، وعلاقة المدرسة في نظامها به.

و لم يجدوا حلاً لهذا التصادم إلا فصل المدرسة عن الكنيسة، وفصل التربية عن الدين كما فصل العلم عنه، ولهم العذر في ذلك عندما يقررون أنه على الإنسان أن يسلك بنفسه وخبرته بعيدًا عن القوى الخفية التي تكبله وتضلله، وعليه أن يكتسب نموه بخبرته الذاتية على حد ما ذكر الدكتور النجيحي مؤرخًا لأقوالهم في كتابه وفي فضل الخبرة وقيمتها في التربية.

وإنما كان لهم العذر لأن الدين الذي تنتمي إليه أوربا ظل -إلى حد ما ولظروف تخص الأطوار الاجتماعية ذاتها- مواكبًا حاجة الإنسان ومتلائمًا مع متطلباته حتى القرن السادس الميلادي، وعندما تغيرت ظروف الإنسان كان لا بد أن يجد دينًا آخر يتلائم معه ويسايره، ولكن أوربا رفضت الدين الذي ظهر على يد النبي محمد ﷺ، وظلت متمسكة بدينها تحت تأثير الأساقفة وتعصبهم، وبالطبع لم يعد ذلك الدين القيم صالحًا لمعالجة المسائل الإنسانية والكونية.

ولـــيس كلامي هذا مجرد إنشاء أو تعصب وإنما هو الحقيقة لا يتجاوزها قيد أنملـــة، وأدلـــل لـــك على صحة ما أقول بما جرى في أوربا بعد رفضها الدين الإسلامي وحربها لـــه، نظرت إلى دينها فوجدته من الناحية العقلية والفلسفية لا يســـد حاجة الإنسان من في المعرفة الدينية بالذات، ولا يحقق لـــه اليقين المنشود فكـــان لا بـــد مـــن إصلاح ديني وتدخل بشري في هذا الدين فتدخل فلاسفة المسيحية بدءًا من القرن الرابع الميلادي لفلسفة الدين وصياغته صياغة منطقية على يد كل من أوغسطين وتوماس الأكويني بالذات.

ولـــو أن عملية الترقيع الفلسفي هذه لم تستطع البقاء أكثر من قرون وجيزة حـــتى بدأ الصراع بعدها بين العلم والدين في عصر النهضة، واصطدمت الحقائق العلمـــية بما يسمى حقائق دينية، وتماسكت الكنيسة أمام الهجمات في البداية وصـــمدت في ساحة الصراع ثم ما لبثت أن استسلمت أمام الهجمات العاتية التي وجهها العلماء وقرروا جميعًا في النهاية صحة الفصل وضرورته بين الدين والعلم، وســـجن الديـــن في الكنيسة وانطلق العلم ليحكم هذا الوجود بنظرته وقوانينه، وانفصلت التربية ومدارسها عن الكنيسة كذلك.

إذا كان لهم العذر في ذلك لضيق النظرة التربوية في دينهم فما لنا نحن، وديننا ذو رحاب تربوي واسع، إنه كما قلنا يراعي حاجة الإنسان ويطلق نظراته العلمية والكونية ولا يقيده، وإنه يلبي حاجياته في كل جديد ما لم يكن محرمًا، وإننا جميعًا نتفق على عقيدة واحدة، وأن التقدم والحضارة تثبت صحة النظرات الإسلامية بما يأتي من جديد.

وإذا كان ديننا، على هذا النحو الفسيح نظرًا واتساعًا فلم نسير وراءهم؟ ولم لا تنبع تربيتنا من رحابة ديننا، وعمق نظراته؟ ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولم نفصل بين العلمية التربوية والدين، وبين الدين والحياة؟.

٣ـ شيوع الروحية

وأهم ما يميز التربية الإسلامية خاصة في البداية وفي العصور الأولى والارتباط الشديد بين العلوم الشرعية والعلوم السلوكية، وبين النظر والعمل، وبين العقل والقلب، وبين النفس والروح، وبين عمران الدنيا والإقبال على الآخرة ، وبين إشباع النفس وإمتاع الروح، ولقد كانت تلك السمة لا سيما بين شيوخ القرنين الأولين شائعة ومقصودة، فنرى انتشار الزهد بين رجال الفقه والتفسير والحديث والنحو، وبين القضاة ورجال السياسة، وكل شيخ في مدرسة له اهتمامه الشديد بهذه الناحية، ولقد أشبعنا هذه النقطة بحثًا في موضع آخر.

٤ـ الاهتمام الكيفي بالمربي

وأدرك المسلمون ضرورة التلقي من شيخ والتتلمذ عليه، والحق يقال: إن المسلمين لم يراعوا في المربي عامل السن بل اهتموا بدرجة الإعداد ومقدار التأهيل ولا ضير بعد ذلك لأن يكون صغير السن أو كبيره، وحرًّا أو مولى فإن أبا مسلم الخولاني قال: دخلت مسجد حمص فإذا فيه نحوًا من ثلاثين كهلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، وإذا فيهم شاب أكحل العينين براق الثنايا ساكت لا يتكلم فإذا امترى القوم في شيء أقبلوا عليه فسألوه، فقلت لجليس لي: من هذا؟ قال معاذ بن جبل[1] وكان عبد الله بن عباس يعلم في مكة مع صغر سنه، وكان علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب يجلس مع أسلم مولى عمر بن الخطاب فقال له رجل من قريش تدع قريشًا وتجالس عبد بني عدي فقال على بن الحسن: إنما يجلس الرجل حيث ينتفع[2] وكذلك أخذ الإمام مالك عن نافع مولى عبد الله بن عمر، وكان على بن عبد الله بن العباس إذا قدم مكة مع صغر منه حاجًّا أو

---

(١) ابن سعد الطبقات الكبرى: ج١: ١١٥.

(٢) نفسه: ج٥: ١٦٠.

معتمرًا عطلت قريش مجالسها ولزمته حيث سار[1] ، وإذا اهتم المسلمون بالمربي ودرجة صلاحيته وإعداده، وانتفعوا بمن صغر سنه أو كان مولى طالما أنه استوفى شرائط المربي فإنهم كذلك أخذوا عن الكبار الذين استوفوا شرائط الإلقاء والتربية ومن أمثال ابن مسعود في الكوفة، وأبي الدرداء في دمشق.

ولقد تتابع هذا الاهتمام بدور المعلم واستمر ، ونبه الجميع على بذل العلم ونشره مثل قول سفيان الثوري المتوفى (١٦١هـ): تعلموا هذا العلم فإذا تعلمتموه فاحفظوه فإذا حفظتموه فاعملوا به، فإذا عملتم به فانشروه[2]، وجلس مالك وعلم، والشافعي وعلم، وأحمد بن حنبل وعلم، ولقد أثنى أحمد على الشافعي ثناءاً كبيرا حتى ذكر أنه ما عرف ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالسه، وأكثر من الدعاء له؟ فقال له عبد الله ابنه: أي رجل كان الشافعي فإني سمعتك تكثر من الدعاء له؟ فقال: يا بني كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن هل لهذين من خلف أو عنهما من عوض[3].

وقال يحيى بن معين: كان أحمد بن حنبل ينهانا عن الشافعي ثم استقبلته يومًا والشافعي راكب بغلته وهو يمشي خلفه فقلت: يا أبا عبد الله تنهانا عنه وتمشي خلفه؟ قال: اسكت لو لزمت البغلة لانتفعت[4] وجلس الأوزاعي وعلم، والثوري وعلم والحسن البصري وعلم، والأعمش وعلم، وغير هؤلاء كثير ممن كانوا معلمين وامتازوا بالسعة والشمول ولقيت دروسهم رواجًا بين الطلاب الصادقين.

---

(١) ابن الجوزي: صفة الصفوة: ج٢: ١٦٠

(٢) ابن الطبقات الكبرى: ج٦: ٢٥٨.

(٣) ابن خلكان وفيات الأعيان: ج٣: ٣٠٥.

(٤) نفس المصدر.

٥ـ تقديره ورفعته

لم يكن المربي لدى المسلمين في ابتداء الدعوة وفي العصور الأولى حامل الذكر مغموطًا في حقه، بل كانت مهنة التعليم من أسمى المهن وأرقاها، سواء بالنظر إلى الناحية المادية وما يمكن أن تدره على الذين كانوا يرغبون في تناول الأجر على التهذيب، أو لمن وهبوا حياتهم للعلم متطوعين والحق يقال فإن المربي المسلم ممن عرف في الإسلام بهذه الكلمة حقًا من أمثال الأئمة الكبار كأبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد أو الثوري أو البصري أو الليث بن سعد ومن قبلهم من الصحابة كانوا يرفضون أن يأخذوا على العلم أجرًا وكانوا من الورع والزهد والتواضع مع الاعتزاز بالعمل وهيبته على درجة كبيرة، ولذا أهابوهم وأجلتهم الرعية والحكام على حد سواء.

وأيضا فقد كانوا على أحسن ما يكون في معاملة التلاميذ رأفة، وشفقة واحترامًا للقدرات والمواهب الشخصية على غرار ما كان مالك يجل الشافعي ،وما عرفت حياة التعلم في صفحات قرونها الأولى عمليات الضرب أو الإهانة إلا في عصور التخلف والاندحار، والصوفية في تربيتهم كانوا على أدق وأفضل ما يكون كذلك أن في الورع والزهد وعدم التقاضي على مهنهم أجرًا، أو في احترام المريدين وإنصافهم وسترى هذا بعينك خلال الجولات القادمة.

وهذا على عكس ما هو موجود في التربية الحديثة فإننا نرى لسنر سميث يعلن الشكوى من إهانة المدرس في انجلترا وغيرهم حتى العقد الأول من القرن العشرين. ويسوق على لسان سنتكس وتشارلز وغيرهم أقوالاً تحتقر مهنة التعليم، وتصف المعلم بأنه رجل وخيم يبدو غريبًا بين أقرانه ونظرائه ولقد كانت تلك الاتهامات تتردد بين أروقة مجلس العموم البريطاني كذلك[1] .

---

(١) لسنر سميث: التعليم بحث تمهيدي ترجمة د. رمزي مفتاح ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤.

٦ـ التركيز على بعض الشعب التربوية

إذا قلنا بشمول الإسلام لجميع فروع التربية اللازمة لإسعاد الإنسان دينًا وأخرى ودنيا، وبأن التربية ارتبطت بالدين، واتسمت بالروحية، وإن المسلمين نظروا إلى نوعية المربي فإنهم بجانب هذا كله حبذوا التخصص في فروع العلم، فنشأ الفقهاء السبعة في المدينة، وبرز ابن عباس في الحديث، ونشط أبي بن كعب وزيد وأبو موسى الأشعري في القراءة، واهتم علي بالقضاء، وكذلك تخصص التابعون في فروع العلوم الإسلامية حتى كانت الجوانب التربوية بمناهجها وموادها مغطاة بالمتخصصين من الشيوخ على وجه كامل ومفيد.

والذي يهمنا هنا ويلزمنا ضرورة بيانه أن الاهتمام بالمسائل القلبية والروحية والنفسية، وعلوم الرياء والشرك، والاستفاضة في الجوانب السلوكية الأخلاقية، والجوانب الإدراكية الحسية والعقلية والعرفانية قد وجدت لها بين المتخصصين مكانًا فسيحًا، ولقيت من صدور الأوائل تفهمًا وبصرًا، ودراية وبصيرة معًا، ولقد تحسس الصحابة أولئك النفر الذين كانوا على سعة بهذا الفرع من العلوم حتى كانوا جميعًا بما فيهم عمر وهو أمير المؤمنين يرجعون إلى حذيفة في علم النفاق والفتن والعامة والخاصة، وعلم الشر لأن رسول الله ﷺ علمه هذا العلم كما هو معروف.

وكان عبد الله بن رواحة يجلس يذكر الصحابة العلم بالله، ويحدثهم عن التوحيد والآخرة، ويسوقهم إلى حلقات الذكر ويخرج إليهم الرسول ﷺ فيسكتون عما هم فيه فيأمرهم أن يواصلوا قائلا: «**بهذا أمرت وإلى هذا دعوت**»[1].

---

(١) المكي: قوت القلوب: ج١: ١٥٠.

وعن ابن عساكر عن أبي الدرادء قال: من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر ولهم بذلك أجر، ومن الناس مغاليق للخير مفاتيح للشر وعليهم بذلك إصر، وتفكر ساعة خير من قيام ليلة[1]. ويقول الصحابي عبد الله بن بشر: كان يقال إذا اجتمع عشرون رجلاً أو أكثر فإن لم يكن فيهم من يهاب الله عز وجل فقد خطر الأمر[2] وأخرج الحاكم وأبو نعيم في الحلية عن ابن عمر رضي الله عنهما قال مر عمر بمعاذ بن جبل رضي الله عنهما وهو يبكي فقال ما يبكيك؟ قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ: «**أن أدنى الرياء شرك، وأحب العبيد إلى الله تعالى الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا شهدوا لم يعرفوا أولئك أئمة الهدى ومصابيح العلم**»[3].

وهذه الشعبة الخاصة بموضوعها ومسائلها ومرشديها هي موضع اهتمام التربية الصوفية ورجالها من شيوخ ومريدين وهي مدار علمهم ونشاطهم حتى ليقول المكي: فالعلماء بالله تعالى هم ورثة الأنبياء لأنهم ورثوا عنهم الدلالة على الله والدعوة إليه والاقتداء بهم في أعمال القلوب[4].

لابد للسالك من شيخ

لعلك تستبعد ما قلناه سابقًا أمام بصرك الآن من أن السالك إما بالجذب أو بالسلوك والأول يحتاج معه المريد إلى شيخ والثاني لابد فيه من مسلك ومربٍّ، ولا غنى لمن يسلك الطريق عن شيخ بصير خبير تهذب وسلك، وتمرن وتفرس، والتربية الصوفية في هذا الجانب منفردة عن أي نوع أو أي مجال تربوي، إذ يمكن

---

(١) كنز العمال: ج٢:٢١٤.
(٢) السهروردي: عوارف المعارف: ٧٣.
(٣) الحاكم ج٣: ٢٧٠، ج١: ١٥.
(٤) المكي: قوت القلوب: ج١: ١٥٧.

لكثير من المعارف أن تحصل بدون قائد أو دال، ويمكن للخبرة الإنسانية وحدها أن تكتشف كثيرًا مما تحتاج في المجالات الأخرى.

وتلعب تجربة الخطأ والصواب دورًا هامًّا في غير مجالنا الروحي، أما في هذا الميدان النفسي والروحي والقلبي فلا يسعفنا إلا عارف، ولا يقودنا إلا من حمل المشعل وقطع الدرب، ولا يسلكنا إلا من تخلص من العوائق والعوارض، ولا يدلنا على النهايات إلا من سار إليها مرة، ولا يجتاز بنا المواقف الصعبة إلا من تخطاها، ولا يحل لنا ألغاز الرحلة إلا من عكف عليها طويلاً وسهر على حلها في نفسه الليالي ذوات العدد، ولا يجلي لنا المرآة إلا من قام بصقلها في نفسه أولاً ونظر بعين قلبه، وأبصر ضوء معرفته، وذاق حلاوة يقينه، ولا يلقن موات نفوسنا ما ينجيها إلا من ذهب إلى ديار السر، واقتحم حجب النور، وكشف له الستر فعرف أسرار النجاة ولفظة الخلود مقتربًا من نور الآزال متحققًا بكلمة التوحيد، متحسسًا معاني الوهب، متذوقًا كلمات الفتح، يسمع همس الخاطر، وإلهام الحاضر: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

ولئن سألتني لأعطينك، فأنت حبيب استعذبت طاعتي وأحسنت عبادتي، وأكثرت من التودد إلى فواددتك وقربتك ووليتك، وكنت سمعك وبصرك ويدك ورجلك.

هذا هو العارف الذي ينشده الصوفية ليكون مربيًا ومسلكًا ويجمعون على ضرورته، ولنستمع إلى بعض أقوالهم في الإفصاح عن لزوم وجوده فوق قمة العملية التربوية، ونلتقي بسيدي عبد القادر الجيلاني (٥٦١هـ) ليبين أن كل حرفة أو علم لا بد فيه من شيخ ومريد، وأستاذ وتلميذ فإن الله أجرى العادة بأن يكون في الأرض شيخ ومريد، صاحب ومصحوب، تابع ومتبوع من لدن

آدم إلى أن تقوم الساعة[1] ولقد علّم الله آدم الأسماء كلها، وأنبأ آدم الملائكة بالأسماء فكان أستاذًا وهم تلاميذ، ثم هبط آدم إلى الأرض واحتاج من يعلمه فهبط جبريل وعلمه الزرع والحرث والأكل والشرب فصار جبريل معلمًا وآدم مريدًا، ثم علم آدم شيئا، وسيث أولاده، ونوح أولاده، وإبراهيم كذلك، وعلم موسى وهارون بني إسرائيل، وعيسى الحواريين، وعلم جبريل النبي الوضوء والطهارة وصلى به الأوقات ليومين، وعلم الرسول الصحابة وعلم الصحابة التابعين والتابعون تابعيهم، فما من وقت إلا وفيه تلميذ وشيخ، ومربَى ومربٍّ[2].

ويستلهم الشيخ الشنجيطي هذه المعاني ويرددها وراء الجيلاني ويرى أن الإنسان مدني بطبعه فهو محتاج إلى الاجتماع، ومحتاج إلى من يرشده ويفيده في أمور الدنيا والآخرة معا فلا يعيش وحده ولا يقوم بأموره بلا معين[3] ويعود الجيلاني ليقول: تعلم هذه الزراعة من الزارع لها لا تنفرد برأيك فإن النبي ﷺ يقول: «**استعينوا على كل صنعة بصالح أهلها**»[4] ويقول: لا تتهوس أنت أعمى أطلب من يقودك، وأنت جاهل اطلب من يعلمك، فإذا وقعت به فتمسك به واقبل قوله ورأيه واستدل به على الجادة[5].

ويقول أبو الحسن الشاذلي (٦٥٦هـ): لا يتم للعالم سلوك طريق القوم إلا بصحبة أخ صالح أو شيخ ناصح[6]، وأما ابن عربي فيذكر كذلك أن طلب

---

(١) الجيلاني الغنية لطالبي طريق الحق: ج٢: ١٤٥، وانظر القشيري رسالة ترتيب السلوك ضمن مجموعة الرسائل القشيرية: ٦٣٠.

(٢) المرجع السابق.

(١) الشنجيطي: الجيش الكفيل: ١٢٣.

(٢) الجيلاني: الفتح الرباني: ١٣٠.

(٣) الشعراني: الطبقات الكبري ج٢: ٥.

(٤) ابن عربي: الفتوحات: ج١: ٣٦١.

الأستاذ أول واجب في سلوك الطريق[1]، ومن ليس له أستاذ ليس له مولى ومن ليس له مولى فالشيطان به أولى، وما هو إلا أن تجد أستاذك حتى تكون قد وجدت مرادك، وهنأ الله به فؤادك على حد تعبير على بن محمد وفا الذي يقول أيضا: أنت أيها المريد غصن ونور أستاذك شمس يحييك وقمر يربيك[2]، وبما أن الطريق وعر، والسالك بنفسه أعمى فيخشى عليه الهلاك ولو كان أسد حسبما يقرر فريد الدين العطار.

وفي ذلك ينشد جلال الدين الرومي في المثنوي من ديوانه فعلى هذا يقوم في كل عهد ولي.

والتجربة مستمرة حتى القيامة..

ويقول :

فهو المهدي والهادي أيها الباحث عن ... وهو المستتر وهو الظاهر فتقدم

وهو كالنور والعقل جبريله ... والولي الذي أقل منه هو السراج

والذي هو أقل منه يعتبر مشكاة لنا ... فللنور في المرتبة مراتب

ويقول أيضا:

إن عبد الله هو ظل الله ... ميت هذا العالم والله حي

تشبث بذيله واذهب بلا وجل ... حتى تنجو من آفات آخر الزمان

كيف مد الظل نقش الأولياء ... الذي هو دليل نور الشمس

ولا تسر في هذا الوادي بغير هذا ... وقل كما قال الخليل أني لا أحب

---

(١) الشعراني: الطبقات الكبرى: ج٢: ٣٠، ٣٧، ٣٩.

(٢) د. عزام: التصوف ومزير الدين العطار: ١٠٠ وانظر نيكلسون: الصوفية في الإسلام: ٣٧.

واذهب وابحث في الظل عن شمس ... وتمسك بذيل الملك شمس التبريزي
فإذا لم تعرف الطريق إلى هذا الفرح ... والعرس فاسأل ضياء الحق حسام

ويقول:

القطب هو الأسد ومهنته الصيد ... وباقي الخلق يأكلون مما يخلفه لهم
جاهد ما استطعت في إرضاء القطب ... حتى يتقوى ويبدي حماسة في الصيد
هو كالعقل والخلق كأجزاء البدن ... وتدبير البدن منوط بالعقل
فالقطب هو من ينسج فيما حوله ... وتدور الأفلاك حوله

ويقول في الدفتر من المثنوي في وصف المرشد وأتباعه:

اختر المرشد الذي سلكته عدة مرات ... بلا حارس أو دليل وكنت مضطربا
فلا تذهبن بمفردك في الطريق الذي ... لم تسر فيه قط ولا تكن مخالفا
فإذا لم تكن ظله عليك حارسا ... فإن صوت الغول يجعلك تائها ضالا
فالغول يحيد بك عن الطريق إلى ... إذا كان في هذا الطريق كثيرون أدهى
فاسمع من القرآن عن ضلال ... عما فعله ذلك الإبليس والروح
حمل الناس مائة ألف سنة عن الصراط ... المستقيم وصيرهم مدبرين معدمين
كل من سار على الطريق من غير ... ضل بسبب الغيلان ووقع في البئر
ادخل في ظل ذلك العاقل الذي لا ... يستطيع أحد أن يحيد به عن سواء

ويقول الشيخ فريد الدين العطار في مثنوية منطق الطير الذي هو أحد الكتب القيمة عن الصوفية بعد أن شرح قصة جماعة من الطير كانت تبحث عن «سيمرغ» أي العنقاء، وبعدما اعتزم السير للبحث طلبت دليلاً يدلها فيقول:

فعزمت على السير عزما أكيدا ... وخفت للمسير نشيطة

obeikandl.com

وقالت جميعا ينبغي لنا الآن ... وجود مرشد يقوم بالحل والعقد
ليكون لنا في الطريق دليلا ... إذا لا يمكن السير في الطريق بضلال
ويلزم وجود عظيم في مثل الطريق ... كي يمكن العبور من هذا البحر
وسوف نطيع حاكمنا بأوراحنا ... ولا نسير إلا بحكمه وأمره

ويقول الشيخ حافظ الشيرازي:

طريقنا عبر البحر فأين خضر هذا ... فلا قدر الله أن تذهب نار الحرمان
فلا تذهب إلى بقعة الحب بلا دليل ... فإني بذلت لنفسي مائة عناية ولم
لا تسلك هذا الطريق من غير أن ... فإنه ظلمات فاخش خطر الضلالة
ستمر أنت بظلمات فاطلب خضرا ... فإن الضلال يكون كثيرا في هذا
لايوجد في عالم الفتوة أي تفكير ... فإن الأنانية والإعجاب كفر في هذا
لا يستطيع سوى الخضر المبارك القدم ... أن يوصل هذه الأجساد إلى ذلك

وهكذا يجمع رجال التصوف الإسلامي من فارسيين وعرب وغيرهم على ضرورة الشيخ، ولعلك تجد بعض الرموز التي تحتاج إلى حل في الأبيات السابقة مما يجعلنا نقف معها وقفة تحليل قصيرة يبين جلال الدين الرومي أن كل عهد لا يخلو من عارف تولاه الله وهكذا إلى يوم القيامة.

وهذا المولى هو المهدي من الله أولاً وهو الهادي لغيره وهو المستتر ولاية وحالاً وتواضعًا وإخفاء لأسراره التي منحت له من الله، وهو الظاهر المشهود له بالصلاح والتقوى، والتي تبدو عليه أمارات الهدى ولا سيما الإيمان.

ويتحدث عن ثلاث مراتب من الولاية:

---

(١) قاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام: ٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٧.

أحدهـــا: ما يحتمل أنه الغوث وهو نور يستمد إلهامه من جبريل الذي يشبه العقل الممد للبشر العاديين.

وثانيها: القطب وهو أقل من الغوث وهو سراج مشتعل.

ثالثها: هو الولي العارف الذي اعتبره جلال الدين الرومي مشكاة يضيء لنا، وهـــو الـــذي نطلـــبه للتعلم منه، وأما القطب أو الغوث فمهمتهما فوق تربية الســـالكين حيـــث يكلفـــان في عالم الولاية بأمور أرقى منها إمداد المربين مثلاً والقيام بدور خاص في الأمور الباطنية البحتة.

ومـــرة أخـــرى يقول عن الشيخ: إنه عبد اللـــه المتحقق بالعبودية وهو ظل اللـــه أي العلامة الشاهدة على نوره وأسراره وإنما سمي الولي ظلاً لكثافته ولما يحمل من مادة مهما شففها بالنور فستظل فيها بقية، وكل ما في الكون فهو بذاته ميت بلا حركة، والسالكون أموات بلا شيخ، وإذا لم يعط اللـــه الحياة للكون لا يتحرك ولا يسير، وإذا لم يعط من سره للولي والولي يربي المريدين فلا يكون هناك تحرك نحو الهدف الأسمى وهو الاتجاه إلى اللـــه، وإذا كان الولي هو الشاهد على اللـــه فلا بد أن نتشبث بأذيالـــه ونسير إليه بلا هيبة ولا احتراز لكي ننجو من آفات النفس وعيوبها.

ولنـــنظر كـــيف يمـــد القطب بسره أنفس الأولياء الذين هم أشبه بالظلال والشواهد والقطب هو الذي يقوم بإنارتها وإضاءتها، وذاك القطب هو شاهد نور الشمس أي النور الأعظم والسر الأبهى وهو اللـــه، وللـــه المثل الأعلى، فاستعن عـــلى المسير في الوادي بدليلك وهو الشيخ، وردد دائمًا لا أحب أن يغيب عن ضـــوئي وهو نور طريقي لأنه إن أفل أي غاب تحيرتُ وتهتُ في ظلامي، وداوم البحث عن الظل أي بين الشواهد الدالة على اللـــه عن الشيخ، وحاول أن تصل

إلى شـــيخ عظـــيم سره جزيل قدره يكنى عنه بشمس التبريزي، لأنك إذا كنت تطلـــب عالم السرور والفرح وبقاع الأنس واليقين فلا بد أن تسأل عارفًا متدينا عـــلى قـــدم هـــو ما يعبر عنه الرومي بضياء الحق، وحسام الدين على الطريقة الفارسية في التعبير عن كبار رجال الدين بآية اللـــه أو حجة اللـــه أو غيرها.

والقطب في نظر الرومي أسد يصيد مريديه، ويوقعهم في شباك نوره، وجرأة عظمـــته، وهو يصطاد فريسته من الذين يحومون حولـــه أو ممن كانوا على بعد ولكـــنه يدركهم ليوصلهم، والكل يأكل مما يلقيه عليهم ومن فتات علمه لا من نقطة سره الجوهرية فهو يحتفظ بها لنفسه، أي إن المريدين ينتفعون مما يلقيه عليهم من علم، وهو لا يلقي كل ما لديه ولا أثمن ما لديه لأنهم لا يطيقون ذلك وكلما جاهدت نفسك لترضيه سيصيدك ويقربك إليه.

والولي في تدبيره للمريد وشئونه أشبه بالعقل الذي يدبر البدن، ويحذرك من وعـــورة الســـير بغـــير مرشد أو دليل ويخوفك من نفسك التي هي الغول ومن الشـــيطان الضـــال المضل ويقول لَسْتَ أكثر حذرًا من غيرك، فكم من السائرين حـــاولوا السير وحدهم وبجهدهم بلا دليل فما قطعوا الطريق وكم حاولوا عبثًا مرات ومرات.

وأمـــا القصة الرمزية التي ساقها العطار على لسان الطير فواضحة، لأنها تبين عـــلى سبيل التمثيل والرمزية والخيال أن جماعة الطيور أرادوا السير إلى العنقاء في أرض بعـــيدة فلما عزموا على ذلك قالوا: فمن لنا بالسير إلا بدليل وهاد يرشدنا في الطـــريق و والطيور كناية عن المريدين لأنهم يطيرون إلى اللـــه بأرواحهم أو يودون ذلك، والعنقاء هي كناية عن رياح الفتح، ونسمات العطاء كما نفهم من

تفسيرها في رسالة اصطلاح الصوفية عن ابن عربي[1]، وأما البحر فكناية عن الفاصل البعيد بين الشاطئين شاطئ حواسنا وعقولنا وماديتنا وشاطئ الأسرار والمنح وعوالم الملكوت والقرب الإلهي والحاكم هو المرشد الذي تجب طاعته.

ويركز الشيخ حافظ على خضر الطريق أي الولي الذي منح من أسرار الولاية ومن عالم الوهب، ومن العلوم اللدنية كما منح الخضر فهو ضروري للرحلة، ولا يمكن أن نذهب إلى بقعة الحب وأرض اللقاء والحضور والقرب إلا وراء خضر وعارف وولي ومرشد ومربٍّ ، ولما كان الخضر كما قيل كان جالسًا ببردته الخضراء على صفحة الماء يوم ذهب إليه موسى لذا ناسب أن يقول حافظ:

إنك إن سرت بلا رجل على قدم الخضر ستحرم ويذهب الحرمان بماء شوقك،
ومهما كنت قوي الإرادة فتوا ذا عزيمة، ومهما كررت المحاولات فلن تقترب إلى بقاع الود والقرب إلا بالمرشد المسلك.

وإذا كان جلال الدين الرومي أشار إلى أن الشيخ أَسَدٌ يصيد فإنه بذلك يلمح إلى نقطة هامة لدى الصوفية يرون فيها أنه لا يجب على الشيخ أن ينتظر مجيء المريدين بل من أحس في نفسه القدرة على الدعوة إلى الهداية، والإرشاد على الطريق يصرح الشيخ داود بن ماخلا قائلا: واجب العارف إن لم يطلبه الخلق ليصلوا بواسطته إلى الله تعالى طلبهم هو لاقتضاء حق الله تعالى[2] ويقول البهي الخولي في كتابه تذكرة الدعاة: وأعلى الخلق قدرا إنما هو أكثرهم إحاطة ووعيًا لما أنزل الله وأعظمهم إفاضة على العباد من نفحات نفسه وحسه، وأقدرهم على إشباعهم بروح الله، وثمرة ذلك أن تنبع شجرة التقوى في القلب، تستفيض دائرة الهدى والخير من حوله، وتهوي أفئدة الناس إلى

(١) ابن عربي رسائل ابن عرب،ي كتاب اصطلاح الصوفية: ١٢.
(٢) الشعراني :الطبقات الكبرى: ج١: ١٦٣

منهاجه والاقتداء به[1].

وهو اعتراف من رجل ينتمي إلى مدرسة سنية بفضل الشيخ وأنه ذو نفحات روحية فاضت على نفسه ورقرقت حسه حتى جعلت قلوب الخلق تفد إليه لترتوي من عذبه ولتنهل من معينه فإذا لم تأت طلبها بحق الله عليه في الدعوة إليه ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف:١٠٨]

الشيخ المربي حيا وميتا

أما أنه يربي حيا فبنصائحه وتوجيهاته، وإرشاده وتهذيبه ومراقبته لتلميذه وتقويمه، وهذا أمر لا ينكر، أما كيف يربي المريد وينفعه ميتًا فهذا هو ما يحتاج إلى التوضيح والنظر، وإن كان لا يخفى علينا جميعًا أن كثيرًا من التلاميذ في كل فن تتلمذوا على مشايخ ولم يروهم، وذلك عن طريق كتبهم المدونة أو وصاياهم المنقولة، أو تعاليمهم المتوارثة عن طريق من عاصرهم ثم أخذ عنهم، وهكذا ترد إلينا أقوال نافعة وهامة في كل مجال تتقدم إلينا من الماضي السحيق وتخدم الإنسان في المجال الأخلاقي أو العلمي أو المعيشي أو الروحي أو الاجتماعي، لأنه مع اعترافنا بأن لقاء الشيخ الشخصي مهم جدًّا إلا أننا لا ينبغي أن نقلل من شأن الأقوال والمعتقدات والتوجيهات المتوارثة وإلا ضاعت الفائدة الكبرى والعامة من وراء انتفاع أجيال متلاحقة بأفكار من سبقهم

ومما لا شك فيه أننا نحب رسول الله ﷺ ونأخذ عنه أقواله من الوحي، ونصدق بكل ما جاء به ونعمل بما فيه، ونتوهج شوقًا لزيارته دائمًا، ونكون بمفردنا بعيدًا ونحس وجوده الدائم معنا، كما نحب الصحابة وننتفع بأقوالهم ونقتدي بهم، ونؤثرهم على غيرهم، ونحن لم نر الرسول ﷺ ولا صحابته الكرام،

---

(١) البهى الخولي: تذكرة الدعاة: ٥٩.

فالعبرة في النفع والتربية ليست برؤية صورة الشخص المربي وحدها وإنما بها وبالآثار المفيدة.

أخرج أبو نعيم في الحلية عن محمد بن واسع أن رجلاً من البصرة ركب إلى أم ذر رضي الله عنها بعد وفاة أبي ذر رضي الله عنه يسألها عن عبادة أبي ذر قالت: كان النهار أجمع خاليا يتفكر[1] وقال الشعبي عن إبراهيم النخعي التابعي المتوفَّي (٩٦٠هـ): وأما أنه لم يخلف خلف مثله قال وهو ميت أفقه منه حيًّا[2] ويقول أبو الحجاج الأقصري: وذلك لأن صورة المعتقدات إذا ظهرت لا تحتاج إلى صورة الأشخاص بخلاف صورة الأشخاص إذا ظهرت تحتاج إلى صورة المعتقدات، فإذا حصل الجمع بينهما فذلك كمال حقيقي[3] فالشخص وحده بدون فكرة تخدم غرضًا تربويًا أو تضيف معرفة جديدة لا قيمة له. ولا فائدة ترجى من وراء رؤيته الشخصية، اللهم إلا إذا اقترنت رؤيته بفكرة أو حكم أو خبرة مما يفيدنا بصفة عامة أو ينفعنا في المجالات الروحية بصفة خاصة، وعلى العكس فلو وجدت الفكرة لأغنت عن الرؤية، وهذا معنى قوله: إن صورة المعتقدات تغني عن الأشخاص لا العكس، وفي اجتماعهما كمال حقيقى، ويقول سيدي محمد أبو المواهب الشاذلي: من الأولياء من ينفع مريده الصادق بعد موته أكثر ما ينفعه حال حياته[4]، ويعلق الشعراني على هذا بقوله: وفي هذا دليل عظيم لأهل الخرق من الأحمدية والرفاعية، والبرهامية، ولا عبرة بمن ينكر عليهم ويقولون هؤلاء أموات لا ينطقون فإن الاقتداء بهم حقيقة إنما هو بأقوالهم

---

(١) أبو نعيم الحلية: ج١: ١٦٤، حياة الصحابة: ج٣: ٢٦٦.

(٢) ابن سعد الطبقات الكبرى: ج٦: ١٩٩٠.

(٣) الشعراني: الطقبات الكبرى: ج١: ١٣٤.

(٤) نفسه: ج٢: ٦٥.

وأحوالهم المنقولة إلينا[1]، ولكن مهما كان من صحة هذا ومن قوة المعتقدات والأقوال والأحوال الوافدة إلينا فإنها لا تثمر ثمارها في نفوس المريد لا سيما في حياتنا اليوم حيث كثرت العلل، واستشرت الأمراض الفتاكة بأخلاق الإنسان ونفسه، واتسعت الحجب وتكاثفت مما يجعل من الضروري مع ميراث الأقوال والأحوال وجود صاحب على نفس الطريقة سلك وسبق يأخذ بيد الآخرين ويبصرهم ويرشدهم ويكون عونًا لهم على أنفسهم، وعينًا لهم على عيوبهم، وقد تفرض عليه تلك الحالة فلا ينبغي له التخلي عنها، ويكون ضياع الفائدة لإخوانه من وراء استخفائه وإنكاره لذاته.

وساطة الشيخ تربوية لا أكثر

وبعد أن علمت أن مهمة الشيخ هي التربية والتسليك، والدلالة على الله وحده، ومعونة المريد على نفسه حتى يتصفى ويتطهر ليعبد الحق عبادة نقية بلا هوى ولا شهوة، ولا تسلط من أنانية ولا رؤية لغير أو سوى نأتي إلى نقطة غاية في الخطورة طالما وقع كثير من الناس فيها ما بين عدو ذام، وما بين صديق مغال، ألا وهي تصور الأولياء شفعاء بين الله وبين عباده من المريدين.

وأدع الكلام لسيدي أبي الحسن الشاذلي ليتولى الرد على هذه الفرية، وليوضح الحقيقة أمام المغالين فيقول: من النفاق التظاهر بفعل السنة والله يعلم منك غير ذلك، ومن الشرك بالله اتخاذ الأولياء والشفعاء، قال الله تعالى: ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[2] [السجدة:٤] ويقول أيضًا: من سوء الظن بالله أن يستشفع بغير الله من الخلق[3].

---

(١) نفسه: ج١: ١٣٥.

(٢) نفسه: ج١: ١٢٥.

(٣) نفسه: ج٢: ١٠، ١١.

أما ابن عربي فيبين معنى الوساطة بقوله: إنما سمي النبي أو الشيخ واسطة لأنهم وسائط بين الحق والخلق نصل بتوسطهم المعاني التي في ذاته تعالى البهم كالكلمات المتوسطة بين المتكلم والسامع لإفادة المعنى الذي في نفس المتكلم للسامع، وهكذا يجب أن يهدأ الجميع، ويصمت الذين يرمون جمهور المريدين بالشوك ويقتنعون بكلام شيوخ الصوفية أنفسهم.

وكيف يشرك القاصدون والسالكون وما جاءوا إلا لتكميل التوحيد وذوق حلاوته، والتحقق به، ومعروف أن التوحيد لدى الصوفية له مذاق أرقى من نظرات المتكلمين، وقضايا الفلاسفة، وظواهر النصوص لدى الحرفين، وهم الذين سعوا لإسقاط كل شعور أو حس بغير أو سوى كي يبقوا به وحده وكي يَفْنُوا عن ذواتهم وإرادتهم مع إرادته وكي لا يشاهدوا سواه، لهذه الدقة والرقة في التوحيد سموا بأرباب التوحيد.

وأيضا في كلام الشاذلي وفي البيان الذي جاء في فصوص الحكم إقناع كاف للمغالين من المحبين الذين يتجاوزن الحد في الثقة بالأولياء أو يفرطون في نسبة الأشياء إليهم، وأقول ما أردده دائمًا: نحبهم حبًّا لا يلغي التكريم ولا يجرح التوحيد، وأخيرًا فالوساطة لا تعني سوى وساطة التأديب والتعريف بالله والدلالة عليه كما جاء في عبارات الجيلاني عن الشيخ وكونه وسيلة أو واسطة فقط[1] ويقول سيدي إبراهيم الدسوقي: لولا أن الشيخ سلم لترقية المريدين لمقت الله كل قلب وجد فيه محبة لسواه فإن الله تعالى غيور[2] على وحدانية ذاته.

---

(١) الجيلاني: الغنية: ج٢: ١٤٥.

(٢) الشعراني: الطبقات الكبرى: ج١: ١٥١.

من أين ينبع حسن توجيه الشيخ للمريد؟

إن المربي هو الطرف الهام في العملية التربوية كلها، وإن المناهج والنظم الدراسية وأماكن الدراسة مع ما لها من أهمية إلا أنها لا تكتسب حيويتها إلا من شخصية المدرس وأنها بدونه تبقى معطلة لا قيمة لها ويكون كل شيء كمًّا مهملاً لا وزن له عندما يفتقد المدرس في حصة أو محاضرة، ويقول الدكتور «جيد»: إن هيئة التدريس في أي معهد علمي هي أهم عنصر من عناصر الأجهزة التعلمية.

ويضيف «بروبيكر» أن أثر المدرس الكفء يستمر طيلة أجيال عدة، ويستمر فعالاً يسجل خدمات للإنسانية لا يتصورها هو نفسه مؤثرة إلى حد أكثر من الخدمات التي أداها في حياته ويرد الأستاذ صالح عبد العزيز قائلاً: وما أعظم تأثير عقل الإنسان على أخيه الإنسان وما أشد ما تتركه شخصية الإنسان في غيره من الشخصيات[1]، لكن كيف يحدث هذا التأثير؟ وكيف يطبعه في نفوس تلاميذه؟

لا ترد إلينا عن هذين السؤالين إجابات شافية ولا تحليلات كافية كهذا الفهم العميق الذي سجله لنا السهروردي البغدادي، وهذا الصوفي الذي لا تخلو مسألة نفسية ولا قلبية ولا روحية ولا دينية إلا وأعطى لها من التحليل النفسي والحكمة الروحية ما يجعله جديرًا بمركزه المرموق بين المؤلفين الصوفيين، وما يجعله بحق سليل أصول صوفية امتلأت وامتلأ منهم سُنَّة من مفرق رأسه إلى أخمص قدمه، ولم يكن سُنِّيًا فحسب وإنما كان سُنِّيًا ذوقيًّا يستعذب روح السنة ويستظهرها، ويستمسك بحروفها ويستبطنها فهو يحفظها نصًّا، ويعيها معنى، ويدريها ذوقًا، ويحللها من الناحية النفسية والروحية.

ولأشد ما تعجبنا نظراته العقلية بنفس القدر الذى نتيه به إعجابًا في أذواقه

---

(١) الأستاذ صالح عبد العزيز: الشريعة الحديثة: ج٣: ٤٢٧.

الروحـــية وهو في نظرنا يعتبر بحق ذلكم الرجل الذي أعطى للتصوف السني قدرًا كبيرًا من النظرات العلمية، وألبسه في أثواب شفافة من القوالب اللفظية، وأضاء فـــيه كـــثيرًا من الجوانب بإشعاعات روحية، فماذا قال عن سياسة الشيخ لمريده وتأثيره فيه؟

إنه قد بدأ أولاً من سياسة لنفسه، مبينًا أنه كان ككل سالك مأمور بسياسة نفسه مبتلى بصفاتها فما زال يسلك بصدق المعاملة حتى اطمأنت نفسه، ولطمأنينتها انتزع منها نوازع الشر وطرح عنها كثافة الحجب حتى لانت بحرارة الروح الواصـــلة إليها، وسرى ذلك إلى الجلد والقلب كما سرى إلى النفس فتحقق بقولـــه سبحانه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢] إن قلب العبد متوسط بين الروح والنفس ولـــه وجهان: أحدهما إلى النفس والآخر إلى الروح، يستمد من الروح بوجهه الذي يليه، ويمد النفس بوجهه الذي يليها حتى تتحقق بالطمأنينة فإذا اطمأنت نفس السالك وفرغ من سياستها انتهى سلوكه وتمكن من سياسة النفس وانقادت نفسه وفاءت إلى أمر اللـــه ثم القلب يشرئب إلى السياسة لما فيه من التوجه إلى النفس فتقوم نفوس المريدين والطالبين والصادقين عنده مقام نفسه لوجود الجنسية في عين النفسية من وجه،ولوجود التآلف بين الشيخ والمريد من وجه التآلف الإلهي قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال:٦٣] فيسوس نفوس المريدين كما كان يسوس نفسه من قبل[1] فانظر كيف حل لنا لغز الخبرة بالسلوك التي تكونت لدى الشيخ، والتي بها يفيد المريد وكيف شرح لنا تولد الرغبة في سياسة النفوس عن الشيخ، وكيف جعل من تلك الحالة بشطريها فلسفة روحية وقلبية ونفسية على غاية من الأهمية،

(١) السهروردي: عوارف المعارف: ٧٣.

فقد أبان لنا عن أن النصوص الواردة في مجاهدة النفس والنصيحة للغير تبطن فيها حكم لا تنكشف إلا لمن تعلم الغوص، وأجاد السباحة في اليم، وراح إلى العمق يستخرج ما فيه من كنوز ودرر.

ولقد بدأ معنا رحلة الغوص هذه من نقطة معلم السباحة وهو الشيخ، وذكر لنا الكيفية التي بها أهل للسباحة بين هذه الأمواج العاتية، وكيف قضى على العواصف التي تعصف بكثير من أرباب الأيدي القصيرة، والسواعد الكليلة؟ فوضح أن الشيخ ما زال يجاهد حتى انتصر، وقفز فوق البرودة واليبوسة التي استصحبها معه من أصل الخلقة، وبها نستعصي على الطاعة والانقياد للعبودية، ويعني باليبوسة والبرودة الطينة والماء الذي عجنت به وما يتبعهما من مطالب تلك الخلقة الترابية الممزوجة بالماء والتي صارت بدنًا، فلما انتصر على مطالب البدن زالت يبوسته وماديته ولانت بحرارة الروح الكامنة فيها من أصل النفخة، والتي هي سر الله ومن أمره، والتي بها خوطبنا في عالم الذر يوم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف:١٧٢] وعندما أشاعت الروح بسلطانها الدفء في البدن وسيطرت عليه شففت كثافته وألانت ماديته وأخضعته كما خضعت هي في يوم النداء الأول وكما أمرت القلب بوجهته لها فخضع.

وذكر كذلك أن الروح تمد القلب، والقلب يمد النفس، فإذا سيطرت الروح على القلب وملأته فاض على النفس فهذبها ورقرقها وبذلك يكون الشيخ قد وصل إلى درجة التصفية والاطمئنان، ويكون في الوقت نفسه مشوقًا ومستعدًا لأن يتوجه إلى نفوس الآخرين ليصنع معها كما صنع من نفسه، وليكرر التجربة مع الآخرين كما أقامها في ذاته، فيجعل من نفوس الآخرين نفسًا له لوجود الجنسية فى عين النفسية أى لوجود التجانس بينه وبين الآخرين في ذات النفس إذ هي واحدة أصلاً بين الجميع ولكنها تتغير تبعًا لظروف عارضة فبحكم التجانس الكلي يصير المربي صالحًا لأن يعالجها مستفيدًا بخبرته معها معتمدًا على وجه

التشابه الكبير بين جوهر نفسه وجوهر نفوس الآخرين.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن عامل التآلف الذي يسمى في الاجتماع الحديث بأن الإنسان مدني بطبعه يحب الاجتماع مع الآخرين يساعد كذلك على دفع المريدين إليه وانضمامهم إلى ساحته وبذا يحسن توجيه المقبلين عليه بعامل التشابه والاشتراك النفسي وبعامل حب الالتقاء والاجتماع معًا، يسوق هذا كله مغلفًا بالتحليل مشحونًا بالروح، وممكنًا بالدليل في سياقه وأثنائه حتى يعطي للمسائل من الأجواء المختلفة ما يرطبها ويرقرقها، فهل قام أحد بمثل هذا التحليل في علوم التربية الحديثة؟ وهل قام أحد من علماء الشريعة الإسلامية في الفروع الأخرى كالفقه والحديث والتفسير بمثل هذه التحليلات الروحية الرائعة؟

الفصل الثاني

تربية الشيخ وإعداده

ضرورة الإعداد

لا أحد يختلف على أن مهنة التربية من المهن الدقيقة، وهي أصل كل مهنة، فالطبيب، والمهندس، والموظف والمحاسب وغيرها من المهن الأخرى قد تخرج أصحابها من المدرسة ومروا على يد مدرسين، والمعلم يختلف عن أي صاحب مهنة أخرى، لأنه لا يُلقي ما لديه من معلومات للتلميذ فحسب، وإنما يضيف إلى ذلك المساهمة في تكوين ذوات أخرى ترد عليه متتابعة، وهي مختلفة فيما بينها.

وقد تطول فترة اشتغاله بالمهنة وتتغير الظروف من حوله، ظروف التلميذ، وظروف البيئة وظروف المجتمع، وهو مضطر إزاء كل هذا لأن يتكيف مع أفواج التلاميذ الذين وإن اشتركوا في بعض الصفات الإنسانية العامة لكنهم متفاوتون طبعًا وطاقة واستعدادًا وآمالاً، ومطالب لأن يتكيف مع الظروف الخارجية التي تتغير يومًا بعد يوم من حوله، وإذا كانت المهنة تقتضي كل هذا فإنها بلا شك تحتاج إلى نوعية خاصة من البشر، ذات مواهب متميزة، وذكاء فائق، وعقلية نشطة، ونباهة عالية، وتتطلب كذلك مع الإعداد الفطري إعدادًا جيدًا لهذا الذي سيقوم بتلك المهمة الشاقة.

إن أي تعامل مع كائنٍ ما، أسهل بكثير من التعامل مع النفوس البشرية ذات التراكيب المعقدة، والأنشطة المتلبدة، والحركة الغامضة الصامتة، ومن ثم فإن الاهتمام بالمعلم، وانتقاءه انتقاء جيدًا سوف يؤثر تأثيرًا كبيرًا على هؤلاء السذج من التلاميذ الذين يتطلعون إلى أستاذيته، وينظرون من أسفل إلى قيادته، وسوف يكشف عن أغوار هؤلاء الطلاب الذين يبدون هادئين، ولكنهم كالخضم الزاجر

تبدو صفحته هادئة ساكنة وفي جوفها من الحياة والحركة ما نعجز عن تصوره فضلاً عن إدراكه.

فإذا كان المعلم يثقف ويربي و يهذب ويؤدب، وينمي فإن علماء التربية في كل جيل يصرون على ضرورة العناية به تكوينًا واختيارًا ورعاية، بصرف النظر عما يحيا فيه الآن من خمول ذكر، وشعور بالظلم الاجتماعي، وضعف في المستوى المادي، وكم نسمع عن مؤتمرات، وندوات تنعقد ثم تنفض على حساب المسكين، ولا ينالـه من وراء ذلك إلا أنه قدم للمجتمعين أجرًا ماديًّا على جلساتهم التي هتفت بالإصلاح، ونادت بالنصفة دون ما سامع ولا مجيب ولا صاغ[1] بالإضافة إلى أنه في أمريكا مثلاً قام هناك صندوق يسمى بصندوق دعم النهوض التربوي أخذ على عاتقه إنصاف المعلم تحت إمداد مؤسسة فورد.

إذا كان الإعداد ضروريًّا في معلم العلوم الدنيوية فما بالنا إذا كان المعلم سيقوم بصحبة تلميذه إلى رحلة يعبران فيها عالم الشهادة بحواجزه وعقباته، ويخطيان الحدود النفسية والمادية ليصلا في النهاية إلى عالم ليس لـه شاطئ و لا نهاية وهو بحر من الأسرار زاخر وفيض من الواردات هادر وخضم من الغيب ليس لـه حدود، ويظن السائر أنه عندما يصل إليه ستنتهي خطاه، وإذا به يقف على بداية ليس لمداها نهاية، ويقف على ساحل دون إدراكه نهاية العقول والبصر، إن لم يتثبت يزل ويحدق به الخطر، فعليه أن يكون كمن قيل لـه ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧].

---

(١) يمكنك أن تقرأ في ذلك المقالات والخطابات التي كونت منها لويز شارب عميدة كلية البنات في (متشيجان) كتابا تحت اسم (لماذا نعلم).
وانظر أيضا كتاب: المعلم والتربية د. عرفات سليمان: ٧، ٩ ، واتجاهت حديثة في إعداد المعلم «بول ودرنج: ٧، ١٩».

إنها رحلة على فرض قطعها حقيقة أو عدم قطعها سيخلف السالك وراءه وهو يسير نحو أمله المنشود كثيرًا من العيوب والآفات، وسيطرح عن نفسه عناءها وهواها، وسيتعرف أثناءها على عديد من الأضواء التي تكشف له غياهب السير، وسيسقي شراب التعرف الذي يبرد عنه لهيب السير، وسيرى في عمق ذاته ومضات اليقين والقرب تخفف عنه آلام المكابدة وحرقة المجاهدة.

فإذا لم يكن معه قائد مبصر ودال آمين، وحاد من أهل الأمر، ومربٍّ قطع الغياض والقفار حتى وصل إلى الدار، وحط عصا التسيار ورفعت له الأستار، وكشف له الأنوار، وقيل له أنت عندنا من الأضياف الأخيار، فخذ منا ما لك تختار وارجع إلى عبيدنا تكن خير جار، إذا لم يكن معه هذا العارف فلن يستطيع السير، ولا بد أن يكون الدال بالطريق عارفًا وبالحقيقة كاشفًا.

الاتجاهات الحديثة في الإعداد

يتفق التربويون على أهمية الإعداد وعلى ضرورة العمل على تنشيط الرغبة وحفزها نحو تلك المهنة كي يقبل عليها الأفراد الناهون، ويسعى إليها الأذكياء وأهل النبوغ الذين يفرون منها إلى مهن أخرى أكثر شهرة وأنمى ثروة وعائدًا، ولكنهم يختلفون حول كيفية الإعداد، هل نحتاج إلى مدرس مثقف أكاديمي له سعة علمية كبيرة في مجال تخصصه وله دراية فسيحة بمجالات علمية أخرى على صلة بتخصصه، أو نحتاج إلى معلم مهني له إلمام علمي كبير، وسعة أكبر بما تتطلبه المهنة من أساسيات التربية وأصولها، ومن معرفة بأنظمة التعليم ومراحله وأهدافه، وكيفية التخطيط له والإعداد للحياة التعليمية على المدى القريب والبعيد، والإلمام بمسائل التربية في بعض الدول المعاصرة ومعرفة الأسس التي تقوم عليها المناهج، والأسس النفسية التي تقوم عليها عملية التدريس.

كذلك فالمهني واسع الدراية بما تحتاجه المهنة، له إلمام بمجال تخصصه

وبالثقافة العامة التي تخدمه في التدريس، أو هل تحتاج إلى من يجمع بينهما جمعًا صحيحًا يكون الجانب الأكاديمي فيه أقوى عن الجانب المهني[1]؟

حول هذه الكيفيات الثلاثة اختلفت أنظار رجال التربية الحديثة في الشرق والغرب، والجامعيون ومن يناصرونهم يؤيدون الاتجاه الأكاديمي، والتربويون ومن معهم يتحمسون كثيرًا إلى النظرية المهنية، والمنصفون يجمعون بين الأمرين ويرون أن الخروج من أزمة التعليم التي نحياها ويحياها العالم، واجتياز مرحلة الضعف الثقافي والعلمي التي تتسم بها دُور التعليم في جميع مراحلها لن يكون إلا بإعداد المعلم أكاديميًّا أولاً ومهنيًّا بقدر ثانيًا ويبدو أن هذا الاتجاه هو الذي سيكتب له الفوز والغلبة في نهاية القرن العشرين أو ما بعده قليلاً لأن كليات المعلمين والتربية في أمريكا بدأت في تغيير مسارها المهني إلى مسار أكاديمي وانضمت إلى الجامعات الأكاديمية لتلعب دورًا هامًّا في إعداد المعلم ثقافيًّا وعلميًّا ثم مهنيًّا إلى حد ما[2]،فلو ظلت الأمور على ما هي عليه من تحمس الأكاديميين ومساعدة المنصفين، واعتدال، التربويين لانتصر اتجاه الجمع بينهما مع أولوية الجانب الأكاديمي.

---

(١) د. عرفات: المعلم والتربية: ١٠، ١٢، ١٦١، بول وددرنج: اتجاهات حديثة في إعداد المعلم: ٢٣، ٢٤، ٣٤، ٣٥، : الأستاذ صالح عبد العزيز: التربية الحديثة: ج٢: ٤٠٠-٤٣٤

(٢) انظر مقال: رالف- ل بيك: تعليم معلمي المستقبل: ١٣٥ ومقال فرانسيس باركينسون كيز الكاتبة الأمريكية الشهيرة: ٢٦٥، ٢٦٦ من مجموعة المقالات التربوية تحت عنوان (لماذا نعلم) نشر لويز شارب.

الاتجاه الصوفي في الإعداد

مع أن إعداد المدرس له صور متعددة منها ما يتعلق بالمناهج، وما يتعلق بالمدرسة التي يتعلم فيها المربي ونوع التعليم الذي يتلقاه، والدروس العملية التي يمكن أن يقوم بها لكسب الخبرة اللازمة قبل البدء في عملية التدريس وتحديد نوع المدرسة أولاً قبل اختيار المدرس فإن كانت تجارية أو صناعية أو معلمين أو ثانوية أعددنا لها من المعلمين ما يناسبها إلا أننا أغضينا النظر قليلاً عن هذه الصور لا لقلة شأنها ولكن لظهورها ووضوحها واتفاق الجميع حولها، وأمسكنا بالنظريات التربوية المختلفة حول كيفية الإعداد العملية أو المهنية حسب ما ذكرنا لأنها هي التي دار وما زال يدور الجدل حولها، ولأنها هي الصور المؤثرة فعلاً في إعداد المعلم وتشكيله.

وكذلك فهي المسألة التي وجدنا جذورها واضحة عند الصوفية بالذات، وأقول الصوفية خاصة دون بقية المربين في عهدهم لأنهم وحدهم هم الذين جمعوا بين السعة العلمية والتوسع لا سيما في العلوم الشرعية وبين الخبرة بشئون المهنة ومطالب التربية وسترى عن قريب أن الشيخ قبل أن يأخذ في سلوك الطريق يقوم بتعلم العلوم الشرعية تعلمًا يجعله قريبًا جدًا من المتخصصين فيها ويلم بأطراف كثيرة من العلوم الأخرى.

وكثير منهم كان أستاذًا قديرًا في عدة فروع علمية تخصصية، وبعد ذلك يسلك من سيكون مربيًا على يد مربٍّ يتعلم منه كيفية السلوك وعيوبه وآفاته، ويلقن منه الطرق الصحيحة للسلوك ويستفيد من المحيطين به ممن سبقوه في هذا المضمار، كما يكتسب خبرة من المواقف التي تطرأ له، وبذلك يكون المربي الصوفي قد تثقف علميًا وشرعيًا، وتعلم مهنيًا وسلوكيًا، واستفاد خبرة وتجربة وهذه كلها أرقى مراتب الإعداد في المعلم.

وأقوى عبارة تدل على ذلك قول ابن زروق عن شروط الشيخ: العلم بالمطلوب على وجه التجربة والعمل بالثابت مع اتباع السنة[1]، وإن كنت لا أميل إلى تسميته معلمًا، وأفضل تسميته مربيًا، لأن كلمة معلم توحي بأنه أقرب إلى الملقن، أو على الأقل تقع عملية التثقيف لدى المعلم في الدرجة الأولى ثم تليها مسائل التأديب والتهذيب في درجات متأخرة، وقد لا تقع كما في أيامنا إلا نادرًا.

أما كلمة مربٍّ فإنها وحدها هي التي تنطبق تمامًا على الشيخ لأنه غالبًا ما تُوكَل مهمة تثقيف المريد شرعيًّا إلى علماء الظاهر ويقوم هو وحده بتهذيب المريد وتسليكه، وبيان الطريق له ومعاونته في ذلك فهو مربٍّ حقيقة وعلى وجه كامل وبعد أن وقفنا على اتجاههم في إعداد الشيخ نأخذ في بيان الشروط اللازمة لصلاحية المربي للتربية.

أولا: الشريعة هل هي الشرط الأول للمربي

ونقدم بين يدي الدارسين والباحثين تأكيدًا على ما قلناه من اتجاه الصوفية نحو الجمع بين العلم والتبحر فيه وبين الخبرة والمهنة أدلة شرعية من أفواههم تقودنا إلى صحة ما ذهبنا إليه ونسوقها في مظهرين الأول: في صورة أقوال موضحة لنظرتهم في إعداد المربي، والثاني: في صورة نماذج شاهدة على ذلك من واقع إعداد الشيوخ وحياتهم العلمية.

أما الصورة الأولى المتمثلة في الأقوال والتوجيهات فإننا نلتقي معها أولاً بالإمام الجنيد (٢٩١هـ) الذي يقول: من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا

---

(١) الشنجيطي: الجيش الكفيل ١٣٢.

يصح لـه أن يتكلم في علمنا[1] وثانيًا بأبي عثمان النيسابوري المتوفَّى(٢٩٨هـ) في قولـه: من أَمَّرَ الشريعة قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أَمَّرَ على نفسه الهوى قـولاً وفعلاً نطق بالبدعة لأن اللـه تعالى يقول: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ [النور: ٥٤][2] ويقول مظفر القرمسيني: من تأدب بآداب الشرع تأدب به متبوعه، ومن تهاون بالآداب هلك وأهلك، ويقول: من لم يأخذ الأدب عن حكيم لم يتأدب به مـريد[3] وأمـا الجيلاني فإنه ينصح المريد قائلاً: اتبع الشيوخ العلماء بالكتاب والسـنة العـاملين بهما[4]، لأن العلماء بالشرع وحقائق الإسلام هم أطباء الدين الجابـرون لكسـره، يـا من قد انكسر دينه تقدم إليهم حتى يجبروا كسرك[5]، والكسر الواقع إنما هو في تدين العبد لا في ذات الدين فإن الدين قائم محفوظ.

وكذلـك يشـترط ابـن عربي أن يكون المربون عالمين بآداب الحضرة وما تسـتحقه من الحرمة[6] ويعلن الدسوقي على سمع جميع الشيوخ بأنه: لا يحق لك أن تأمـر غيرك إلا إن كانت الشريعة تزكيك بوقوفك على حدودها[7] ويلخص محمد بن المنور في كتابه أسرار التوحيد وجهة نظر شيخه أبي سعيد في هذا المجال فيقول: كانت سيرة المشايخ جميعًا على هذا النحو فساروا طوال حياتهم على سنة المصطفى وأوجبوا على أنفسهم النوافل والأولاد[8].

---

(١) الشوكاني: قطر الولي: ٢٣٦.
(٢) السلمي: طبقات الصوفية: ٩٧.
(٣) السلمي: طبقات الصوفية: ٩٧.
(٤) الجيلاني: الفتح الربان:ي ٩٥،١٢٩.
(٥) السلمي: طبقات الصوفية: ٩٧.
(٦) ابن عربي: الفتوحات المكية: ج٢: ٤٨٢.
(٧) الشعراني: الطبقات الكبرى: ج١: ١٣٩.
(٨) ابن المنور: أسرار التوحيد: ٤٩.

وكذلك يؤكد الشعراني في مقدمة الطبقات الكبرى على تلك الحقيقة فيبين أنه قد أجمع القوم على أنه لا يصلح للتصدر في طريق الله عز وجل إلا من تبحر في علم الشريعة، وعلم منطوقها ومفهومها وخاصها وعامها، وناسخها ومنسوخها، وتبحر في لغة العرب حتى عرف مجازاتها واستعاراتها وغير ذلك فكل صوفي فقيه ولا عكس[1]، ولقد تأثر الشعراني في ذلك وفي العبارة الأخيرة بالذات بأقوال كل من أبي نصر السراج والسهروردي البغدادي اللذين أكدا على أن الصوفية يلتقون مع علماء الشعر في حوزة علومهم وينفردون عنهم بعلوم اختصوا بها وامتازوا عن غيرهم فيها.

وتحمس الشوكاني لهذه الشروط التي وضعها الصوفية كضرورة لإعداد المربي، وبالطبع لا بد أن يكون أثر المتحمسين لمثل هذه الأفكار فإنها توافق منهجه ومدرسته السلفية، وإنما بنى هذا التحمس على عبارات الشيوخ أنفسهم من أمثال الجنيد وأبي عثمان النيسابوري وأبي عمرو بن نجيد (٣٦١هـ) ثم علق عليها قائلا: إن المعيار الذي تعرف به صحة ولاية الولي هو أن يكون عاملاً بكتاب الله سبحانه وبسنة رسول الله مؤثراً لها على كل شيء مقدامًا لها في إصداره وإيراده وفي كل شئونه فإذا زاغ عنها زاغت عنه الولاية ويجب أن يكون الأولياء من الشيوخ على الطريقة السوية والمنهج القويم مقيدين بقيد الكتاب والسنة، مقتدين بالهدي المحمدي مؤثرين لما في كتاب الله سبحانه، وفي سنة رسوله على زائف الرأي والتقليد ومن ظن أن لأحد من الأولياء طريقًا غير هذا فهو كاذب[2]، وهذا الجانب هو الذي يمثل الإعداد النظري والتثقيفي والعلمي للشيخ.

---

(١) الشعراني: الطبقات الكبرى: ج١: ٤.

(٢) الشوكاني: قطر الولي: ٢٦٢، ٢٩٤.

نماذج التربية الشرعية والعلمية
شعاعات من القرن الثالث

قلما تجد كتابًا من كتب التراجم يحدثك عن الصوفية إلا وصدر بداية حديثه عن الشخصية التي يترجم لها بعد تعريفها بإبراز نبوغه العلمي، واهتمامه بعلوم الشريعة بالذات، ففي القرن الثالث مثلاً نجد أبا عبد الرحمن السلمي (٤١٢هـ) وابن الملقن في طبقاتهما يحدثان عن الداراني (٢١٥هـ) وبشر بن الحارث (٢٢٧هـ) وأحمد بن أبي الحواري (٢٣٠هـ) وحاتم الأصم (٢٣٧هـ) والحارث المحاسبي (٢٤٣هـ) وسري السقطي (٢٥١هـ) ويحيى بن معاذ الرازي (٢٥٨هـ) وأبي يزيد البسطامي (٢٦١هـ) وبكار بن قتيبة (٢٧٠هـ) وحمدون بن القصار (٢٧١هـ) وأبي الحسين النوري (٢٩٥هـ) والجنيد (٢٩٧هـ) بعبارات واحدة لا تخرج عن كونهم جمعوا بين علوم الظاهر والباطن أو أسندوا الحديث، ودرسوا التفسير أو الفقه.

ويصرح ابن الملقن بأن أحمد بن محمد بن غالب (٢٧٥هـ) الذي كان من الصوفية ثم خرج عليهم ودس عليهم عند الخليفة المعتضد العباسي فحاكمهم بما عرف في تاريخ الجهاد الصوفي باسم (محنة غلام الخليل) وهو لقب أحمد بن غالب يقول ابن الملقن: لما سعي بالصوفية إلى الخليفة وأمر بضرب أعناقهم تقدمهم النوري وقد بسط النطع فقال له السياف لا أدري لماذا تبادر؟ وما الذي يجعلك؟ قال: أوثر أصحابي علي بحياة ساعة، فتحير السياف وأنهى خبرهم إلى الخليفة فرد أمرهم إلى القاضي فألقى القاضي يومئذ على أبي الحسين مسائل فقه فأجاب عنها ثم قال وبعد فإن لله عبادًا إذا قاموا قاموا بالله ، وإذا نطقوا نطقوا بالله، وسرد ألفاظًا حتى أبكى القاضي فأرسل إلى الخليفة وقال: إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض موحد فخلّى سبيلهم.

كما يذكر أن الجنيد درس الفقه على يد أبي نور إبراهيم بن خالد بن اليمان

أي نور الكلبي الفقيه، (٢٤٠هـ) الذي امتدحه ابن حنبل ولزمه صحبته خمسين عامًا وشبهه بسفيان الثوري صلاحًا وورعًا وكان الجنيد يفتي في حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة، ويروي على لسان إبراهيم الخواص (٢٩١هـ) قوله: ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العالم من اتبع العلم واستعمله واقتدى بالسنن وإن كان قليل العلم[1].

أضواء من القرن الرابع

ونسمع السلمي وابن الملقن يتابعان الوصف العلمي والاستمساك بالشرع والتبحر فيه لرجال القرن الرابع الهجري كذلك فيخبرنا عن رويم بن أحمد (٣٠٣هـ) بأنه كان فقيهًا على مذهب داود الأصبهاني، وكان مقرئًا قرأ على إدريس بن عبد الكريم الحداد، وحدث أيضًا عن الليث بن سعد.

وأما يوسف بن الحسين الرازي (٣٠٤هـ) فهو معدود من رواة الحديث وكان دينًا عالمًا، ويقول أبو العباس بن عطاء الآدمي (٣٠٩هـ): من لزم نفسه آداب السنة نوَّر الله قلبه بنور المعرفة ولا مقام أشرف من متابعة الحبيب ﷺ في أوامره وأفعاله وأخلاقه والتأدب بآدابه، وقد أسند الحديث أيضا وعلى منواله في إسناد الحديث سار أبو محمد الحريري (٣١١هـ) المعدود من علماء القوم، وكتب وحدَّث وصنَّف المسند.

ويعتبر سنان بن محمد الحمال (٣١٦هـ) ممن حدث وأسند، وعلى شاكلته محمد بن الفضل البلخي (٣١٩هـ) وعبد الله بن محمد منازل (٣٢٩هـ) وإبراهيم بن شيبان القرمسيني (٣٣٠هـ) الذي أوصى ابنه إسحاق قائلاً: تعلم

---

(١) ارجع إلى : السلمي: الطبقات ١٣، ١٤، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٢، ٢٤، ٢٦ وابن الملقن في طبقات الأولياء ١٧، ٦٤، ١١٧، ١٢٦.

العلم لآداب الظاهر، واستعمل الورع لآداب الباطن وإياك وأن يشغلك عن الله شاغل.

ويعتبر أبو العباس السيادي (٣٤٢هـ) رأسًا في علوم الطائفة مع فقهه وعلمه وكتابته الحديث الكثير، وكذا أبو محمد عبد الله بن محمد الرازي (٣٥٣هـ) فقد حدث وكتب الحديث وقال: دلائل المعرفة العلم، والعمل بالعلم، والخوف على العمل.

ويشجع أبو عبد الله أحمد بن عطاء بن أحمد الروزباري (٣٦٩هـ) على كتابة الحديث وإسناده مع التصوف فيقول: التصوف ينفس عن صاحبه البخل، وكتب الحديث ينفي عن صاحبه الجهل، فإذا اجتمعا في شخص فناهيك به نبلاً ويشابهه في هذا الاتجاه أبو القاسم النصر أباذي (٣٦٧هـ) في قوله: التصوف ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، وتعظيم حرمات المشايخ والملازمة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات.

وممن أجاد وأكثر فى كتابة الحديث أبو الحسين أحمد بن أبي عثمان الحيري (٣٤٦هـ) وأبو القاسم المخرمي (٣٦٤هـ) الذي جمع بين علمي الشريعة والحقيقة، وذكر أمام سعيد بن سلام المغربي (٣٧٣هـ) قول الشافعي: العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان، فقال سعيد مفسرًا: ما أحسن ما قال، علم الأديان علم الحقائق والمعارف وعلم الأبدان علم السياسات والرياضات والمجاهدات[1].

(١) انظر طقبات السلمي وطبقات الأولياء لابن الملقن: ترجمة كل من ذكرنا تحت أسمائهم.

هدأة من القرن الخامس

وإذا وقفنا على حدود القرن الخامس الهجري وجدنا فيه أبا علي الدقاق (٤٠٥هـ) واحد من الرجال الذين امتازوا بسعة العلم والفقه والتبحر في علوم الحقائق يقول الهجويري فيه: كان إمام فقه، منقطع النظير في زمانه، وذا بيان صريح ولسان فصيح في كشف طريق الله تعالى[١]، ويقول المناوي: وهو أبو على الحسن الدقاق النيسابوري الشافعي كان لسان وقته وإمام عصره، فارهًا في العلم، محمود السيرة محمود السريرة جنيديّ الطريقة، سريّ الحقيقة أخذ مذهب الشافعي عن القفال والحصري وغيرهما، برع في الأصول، وفي الفقه، وفي العربية حتى شدت إليه الرحال في ذلك ،ثم أخذ في العمل [٢].

ولا تخفى علينا جهود أبي عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى السلمي (٤١٢هـ) في علوم الشريعة والحقيقة، فقد تتلمذ على الدارقطني السراج والنصرأبادي وكان من تلاميذه البيهقي والثوري والجويني والقشيري والخطيب البغدادي، ووصلت إلينا تآليفه في التفسير والحديث مع مؤلفات التصوف سواء بسواء وكما يقول ابن الملقن عنه: كان رأسًا في أخبارهم صنَّف لهم سننًا وتفسيرًا وتاريخًا[٣].

ومن أشهر رجالات هذا العصر الذين أُهِّلُوا تأهيلاً علميًا وتربويًا بجانب من ذكر أبو العباس أحمد بن محمد الشقاني المتوفّى حوالي (٤٤٠هـ) حيث نبغ في فنون العلم وأصوله وفروعه، وكان ناضجًا في جميع المعاني، معظمًا للشريعة، ويذكر الهجويري بأنه لم ير طيلة حياته رجلا من أي صنف كان يعظم الشرع

---

(١) الهجويري: كشف المحجوب: ج١: ٣٧٧.

(٢) المناوي: الكواكب الدرية في تراجم الصوفية ترجمة الدقاق.

(٣) ابن الملقن: طبقات الصوفية: ٣١٣.

أكثر منه[1].

كما وصف أبو الفضل محمد بن الحسن الختلي المتوفّى قبل (٤٣٥هـ) أو (٤٣١هـ) بأنه كان عالمًا بعلم التفسير والروايات، ويذهب مذهب الجنيد في التصوف أخذًا عن شيخه الحصري، واعتبر أبو أحمد المظفر بن أحمد بن حمدان المتوفّى، (٤٥٠أو ٤٣٥هـ) من كبار أئمة الحديث المعروفين وكبار مشايخ الصوفية على حد سواء.

ونترك أبو سعيد بن أبي الخير المتوفّ (٤٤٠هـ) ليحكي لنا قصة التكوين العلمي له بداية فيروي لنا أنه تلقى حفظ القرآن على يد أبي محمد العنازي وكان إمامًا يتصف بالورع والتقوى ومن مشاهير قُرَّاء خراسان وعندما أتممت حفظ القرآن قال لي والدي: يجب أن تذهب غدًا على المؤدب فأخبرت أستاذي بذلك فقال لي على بركة الله ثم قال: اذكر عني هذا القول: لأن نرد همتك على الله طرفة عين خير لك مما طلعت عليه الشمس، فحفظت هذا القول، واستعفاني الأستاذ فعفيته، وذهبت في اليوم التالي إلى أبي سعيد العياري وكان إمامًا وأديبًا ومفتيًا، ومكثت لديه مدة كنت خلالها أتردد على الشيخ أبي القاسم بشر ياسين أتعلم منه علوم الإنسان، وقد توفيّ (٣٨٠هـ، ٩٩٠م).

وهكذا ظل حتى تعلم اللغة على يد مؤدب وأتم حفظ ثلاثين ألف بيت من الشعر، ثم قصد مرو وذهب إلى الشيخ أبي عبد الله الخضري إمام زمانه ومفتي عصره، مطلعًا اطلاعًا تامًّا على علم الطريقة منه أخذ أبو سعيد علم الفقه الذي أخذه الخضري عن ابن سريج عن المزني عن الشافعي، وظل ملازمًا لهذا الشيخ حتى مات فقصد أبو سعيد سرخس عند الإمام علي زاهر بن أحمد الذي كان

(١) الهجويري: كشف المحجوب: المقدمة: ٥٨.

مفسـرًا ومحدثًا وفقيهًا، وكان يقرأ التفسير عليه في الفجر، والأصول في الظهيرة، وأخبار الرسول ﷺ في العصر، أي إنه تتلمذ على أبي علي الفقيه في هذه العلوم الثلاثة.

قال: وذات يوم كنت أسير فرأيت لقمان السرخسي يخيط ثوبًا لـه، وكان رجلاً ورعًا فاضلًا حتى كوشف فذهب عقلـه، فلما انتهى من خياطة الثوب قال لي: يا أبا سعيد لقد خطتك مع هذا الثوب، ثم قام وأمسك بيدي حتى قادني إلى خانقاه الشيخ أبي الحسن، ووضع يدي في يد الشيخ وقال لـه خذ هذا الشاب وارعه فإنه منكم، فأدخلني الخانقاة وجلس يقرأ في كتاب، فتساءلت في نفسي كما هي عادة أهل العلم أي كتاب هذا؟ فأدرك الشيخ مني ذلك وقال يا أبا سعيد: إن المائة والأربعة عشر ألف نبي الذين أرسلوا للبشر بعثوا ليعظوا بكلمة واحدة (الله) واستغرقوا فيها حتى تغلغلت في أنفسهم قال: فبدأت أسمع وأنفذ، وفي اليوم التالي ذهبت إلى درس التفسير عند الشيخ أبي على فوجدني مضطربًا فقال لي: كيف كنت بالأمس؟ فقصصت لـه، فقال: اذهب والزم المكان الذي كنت فيه فلزمته وذكرت حتى فتح اللـه عليَّ فأوصاني شيخي أبو الفضل حسن أن أذهب إلى خلوة لا يكون فيها غيري وتعرض فيها عن نفسك وعن الناس وتستسلم لإرادة اللـه قال: فتركت كل هذا وعدت إلى مهينة[1] واعتكفت في خراب تلك الزاوية -وأشار إلى داره- ومكثت سبع سنوات مرددًا (اللـه اللـه اللـه) حتى أخذت كل ذرة في كياني تصرخ (اللـه اللـه اللـه)[2].

ولم يكن عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك أبو القاسم القشيري (٣٧٧ هـ-٤٦٥هـ) أقل في الاجتهاد العلمي والتربوي من أبي سعيد بن أبي الخير بل

(١) مهينة مدينة من أعمال خراسان بإيران اليوم.

(٢) محمد بن المنور: أسرار التوحيد: ٣٣- ٤٥، وطبقات الأولياء: ٢٧٢.

إنه في بدايته أرسل من (أستوا)[1] إلى نيسابور ليتعلم الحساب خدمة لقريته، وكانت فرصة عظيمة انصرف فيها القشيري إلى تعلم التفسير والأصول، أما الأصول فقد أخذه من ابن فورك أبو بكر محمد بن الحسن الفوركي الفقيه والمتكلم توفيّ (٤٠٦هـ) ومن الاسفرايين» أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ٤١٨هـ كما نظر القشيري في كتب أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني البصري (٤٠٣هـ) وهناك التقى بالجويني أبي محمد عبد الله بن يوسف (٤٣٤هـ) والد أبي المعالي الجويني، والبيهقي (٤٥٨هـ) صاحب السنن.

ولما التقى أبو القاسم القشيري بالشيخ الصوفي أبي على الدقاق، وأبدى له رغبة في لزوم الطريق والسلوك قال له أبو علي: إنما ينبغي لك أولاً أن تتقن دراستك بقدر طاقتك، فظل مجتهدًا في الدرس والتحصيل حتى نبغ في علوم الأدب والفقه والكلام والحديث والتفسير ثم لزم أبا علي الدقاق وتزوج ابنته وسلك على يديه[2].

وعلى هذا النهج سار علي بن عثمان أبي علي أبو الحسن الجلابي الهجويري الغزنوي (٤٦٥هـ) فقد درس في موطنه غزنة، العلوم المتعارفة في عصره كقراءة القرآن وتعلم اللغة والأدب، وكرَّس جهدًا كبيرًا لدراسة العلوم الدينية والشرعية كالتفسير والحديث والروايات والفقه، وإلى جوار هذه العلوم درس اللغتين الفارسية والعربية وأجادهما إجادة تامة، وكتابه كشف المحجوب بما يحمل من آيات وأحاديث قام صاحبه بشرحها والتعليق عليها، وبما يحمل من أشعار عربية وفارسية ومن أحكام فقهية ويعتبر صورة صادقة لتلك الثقافة الواسعة التي امتاز بها

---

(١) استوى من أعمال نيسابور

(٢) ابن الملقن طبقات الأولياء: ٢٥٧، ٢٥٨ ، وانظر رسالة شكاية أهل السنة للقشيري: ٢، ٣ ومقدمة كتاب لطائف الإشارات للدكتور إبراهيم بسيوني: ج١: ٢٠، ٢١.

هذا الشيخ الصوفي.

وقد صرَّح في كتابه كذلك بأنه سلك الطريق بإرشاد أبي الفضل محمد بن الحسن الختلي، وبتوجيهات أبي القسم الجرجاني وأبي أحمد المظفر[1].

دعاة من السادس

ويعتبر الغزالي أبو حامد (٥٠٥هـ) الحلقة الجيدة التي ربطت بين صوفية القرن الخامس الذي عاش في نصفه الثاني وبين القرن السادس الذي أدرك بداياته، وهو معروف بسعته العلمية، والسلوكية وفي غنى عن الحديث عنه، وكما يضاهيه علمًا وسلوكًا أبو الفضل محمد بن طاهر بن محمد علي الحافظ المقدسي (٤٤٨ هـ- ٥٠٧هـ) أحد الحفاظ السادات، ذو المصنفات في الحديث والطريق والرجال، انتصر في كتابه (صفوة التصوف) لأهل الطريق وبوب لهم أبوابا من حيث السنة[2].

وغني عن البيان كذلك ما يقال عن علم الجيلاني(٥٦١هـ) وعن ولايته وطريقته، ولقد ختم القرن السادس برجل ملأ الأرض حديثًا بمسند الإمام أحمد الذي سمعه من أبي القاسم بن الحصين ألا وهو ذاكم الصوفي أبو طاهر الخباز (٦٠٠هـ) وكان شيخًا صالحًا[3].

---

(١) الهجويري: كشف المحجوب: ج١ مقدمة: ٥٥- ٦٤.
(٢) طبقات الأولياء: ٣١٦، ٣٧٨.
(٣) المرجع السابق.

أقطاب من القرن السابع

وعندما نفتح القرن الهجري نجد فيه جمهرة كبيرة من العلماء الصوفية من أمثال أبي الحسن على بن حسين الصباغ (٦١٢هـ) وأبي العباس البوبيهي (٦٢٢ هـ) وأبي العباس أحمد البصير (٦٢٣هـ) وعبد الله بن مسعود بن مصر الرومي (٦٣٥هـ) وكمال الدين القسطلاني (٦٣٦هـ) وابن الفارض وتاج الدين البكري (٦٤١هـ) وغيرهم كثير في مصر.

ونجد في الشام عبد الله بن عثمان (٦١٧هـ) وشهاب الدين عمر بن محمد السهروردي (٦٣٢هـ) تلميذ أبي النجيب السهروردي، ومحيي الدين بن عربي بشهرته وعليًّا بن حسن الحريري (٦٤٥هـ) وأبا بكر بن قدام (٦٩٣هـ) وغير هؤلاء كثير في العراق واليمن وحضرموت وتونس والمغرب والأندلس وغيرها من البلدان[1].

ويمكنك أن تستمع إلى شهادة أحمد المقري في كتاب (نفح الطيب) عن واحد منهم هو أبو الحسن علي بن أحمد الحرالي (٦٣٧هـ) حين يصفه بأنه إمام ورع وصالح زاهد كان بقية السلف، وقدوة الخلف وقد زهد في الدنيا وتخلى عنها وهو ممن جمع بين العلم والعمل[2]، وأما أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافري نزيل الإسكندرية فهو أحد أولياء الله تعالى، وشيخ الصالحين وصاحب الكرامات المشهورة جمع العلم والعمل والورع والزهد والانقطاع إلى الله تعالى والتخلي عن الناس والتمسك بطريقة السلف، وكان عالمًا بالقراءات السبع، تلقاها من أبي عبد الله محمد بن سعادة الشاطبي بقريتهما، الشاطبية وقرأ

(١) الأستاذ/ عز الدين خلف الله السيد إبراهيم الدسوقي: فقد قدم ثبتًا عظيمًا لشيوخ الصوفية في القرن السابع من ٢٥إلى ٣١.

(٢) المقري: نفح الطيب: ج١: ٤١١.

بدمشق على الواسطي، وسمَّع عليه الحديث، ورحل فسمع من الزاهد أبي يوسف يعقوب خادم أضياف رسول الله ﷺ بين القبر والمنبر عام (٦١٧هـ)[١] ولقد انقطع لعبادة الله تعالى في رباط سوار من الإسكندرية بتجربة أبي العباس المرسي بعد أن حصل على هذه العلوم كلها.

وأيضًا فإن الجانب العلمي هو الذي حدد شخصية أبي الحسن الشاذلي (٦٥٦هـ) حيث بدأ الدراسة مبكرًا وحصَّل وتثقَّف كأحسن ما يكون المثقف، حفظ القرآن، ودرس السنة والعلوم الدينية، ولم يدخل في علوم القوم حتى كان يعد للمناظرة في العلوم الظاهرة وكان ذا علوم حجة وهو صاحب العلوم الغزيرة[٢]، حسبما حدث عنه ابن عطاء الله السكندري في لطائف المنن، ولا ينكر أحد ما للشاذلي من ولاية وأثر واسع طيب في الحياة الروحية والصوفية.

وقد عاصره أبو عبد الله محمد بن سراقة الشاطبي (٦٦٣هـ) الذي عُدَّ من رجال الحديث، وقد تولى مشيخة الدار الكاملة في الحديث بالقاهرة بعد وفاة ابن سهل العفري (٦٤٢هـ) وقيل عنه: هو أحد الأئمة المشهورين بغزارة الفضل وكثرة العلم والجلالة والنبل وأحد مشايخ الصوفية[٣].

واشتهر كذلك أبو الحسن الششتري علي بن عبد الله النميري الصوفي (٦٦٨هـ) بأنه كان مجودًا للقرآن قائمًا عليه عالمًا بمعانيه، ومن أهل العلم والعمل جال في الآفاق، ولقي المشايخ وحج حجات، وآثر التجرد والعبادة[٤]، وقال

---

(١) نفسه: ج١: ٣٨٨.

(٢) ابن عطاء الله لطائف المنن: ٥٣ وما بعدها، ود. عبد الحليم محمود: أبو الشاذلي: ٥٥.

(٣) المقري: نفح الطيب: ج١: ٣٥٢، ٤٠٩.

(٤) المقري: نفح الطيب: ج١: ٣٥٢، ٤٠٩.

المقري: هو عروس الفقهاء وإمام المتجردين وبركة لابسي الخرقة وذكره القاضي أبـــو العباس الغبريني في عنوان الدراية فقال: الفقيه الصوفي من الطلبة المخلصين، والفقراء المنقطعين لـــه علم بالحكمة، ومعرفة بطريق الصوفية[1].

ويمدح ابن شاكر في فوات الوفيات أبا بكر بن قوام بن علي البالسي (٦٥٨ هـــ) بأنه كان شيخًا زاهدًا عابدًا قانتًا للـــه تعالى عديم النظير، كثير المحاسن، وافـــر النصيب من العلم والعمل صاحب أحوال وكرامات[2] وهو كثير التواضع شديد الحياء متمسكًا بالآداب الشرعية تخرج به غير واحد من العلماء والمشايخ.

ونلتقي أخيرًا مع ابن الملقن ليحدثنا عن عبد اللـــه بن حمزة (٦٧٥هـــ) بأنه ذو تمسك واعتناء بالعلم وأنه اختصر قطعة من صحيح البخاري وشرحها بشرح بديع، ومع ذلك فهو القدوة الرباني من بيت كبير لهم تقدم ورياسة، ولـــه جمعية عـــلى العـــبادة، وشـــهرة كبيرة بالإخلاص واستعداد للموت، وفرار من الناس وانجماع عنهم إلا من الجمع وتذكر لـــه كرامات[3].

الاستمرار والاضطراد

وهكـــذا يمكنك أن تجد في القرن الثامن رجالاً جمعوا بين العلم والسلوك من أمثال كمال الدين بن عبد الظاهر (٧٠١هـــ) وفي القرون التالية كذلك مما يضيق بهـــم المقـــام هنا لو تتبعنا أسماءهم والأقوال الدالة على سعتهم العلمية وخبرتهم التربوية، ولكن فيما ذكرناه فوق الكفاية لما هو مطلوب من إثبات منهج الصوفية في إعـــداد المربي، وأنهم في كل قرن قد استمسكوا بالجمع بين النبوغ في العلوم

---

(١) نفسه: ج١: ٤٠١.
(٢) ابن شاكر: فوات الوفيات: ج١: ٨٠.
(٣) ابن الملقن: طبقات الأولياء: ٤٣٩، ٤٤٠.

الشرعية والحوزة للخبرة والتجربة السلوكية بحيث يمكن أن نقول اعتمادًا على ما سبق أن شيوخ الطريق كانوا على أفضل ما يكون المربون تعلمًا وتربية، تثقيفًا وتهذيبًا، وتحصيلاً وتدريبًا، ودراية وخبرة فقهًا وعملاً وإخلاصًا وصدقًا تأدبًا وتأديبًا، و لم يتصدروا للتربية إلا بعد الفراغ من هذا كله.

الخلاصة

من وراء هذا الحشد من العارفين وقواد الطريق تتجلى في عدة نقاط:

١- إن إعداد المعلم الصوفي كان يبدأ بحفظ القرآن واستظهاره حفظًا جيدًا مع معرفة القراءات أو الإلمام بها.

٢- إن علوم اللغة كانت تأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن مباشرة لا لأنها أهم في نظر الصوفية من الحديث أو غيره من العلوم الشرعية، ولكن لكونها آلات تستخدم في دراسة العلوم الدينية ويلزم الدارس لهذه العلوم أن يكون ملما بالآلات التي يستعملها في دراسته كي يحصل على وضوح.

٣- ثم بعد إجادة الآلة، واستواء السفينة يشرع الدارس في التوجه نحو المطلوب من العلم الشرعي وهو الحديث والسيرة أو ما يطلق عليه علم الروايات، والفقه وأصوله.

٤- إن دراسة العلوم العقلية لم تظفر لدى الكثيرين منهم بنصيب واف من الدارسة، و لم ير رجال الطريق ضرورتها في إعداد المربي، أو الحاجة إليها في علم السلوك، ومن حصلها أو اقترب منها إلى حد بعيد فإنما كان ذلك قبل أن يتضح له منهجه العلمي والسلوكي، وقبل أن يقرر انضمامه إلى حلقات الصوفية، فلما انضم وسلك ترك اشتغاله بهذه العلوم كالمحاسيب، والفخر الرازي و لم يشذ عن تلك القاعدة إلا نفر قليل جدًّا لا يتعدى أصابع اليد الواحد كعبد الحق ابن سبعين والسهروردي الإشراقي الدمشقي صاحب هياكل النور وأضرابهما وليسوا متصوفة على الحقيقة بل فلاسفة إشراقيين

وبالتالي فليسوا شيئا إذا قيسوا بهذه الأعداد الهائلة التي حافظت على الشرع والنقاء الشرعي دراسة وسلوكًا وتربية.

٥- إنهم كانوا يميلون إلى الأثر وإلى المذاهب الفقهية المشهورة بميولها الشديدة نحو السنة كمذهب مالك الذي كان عليه صوفية المغرب غالبًا، ومذهب الشافعي الذي انحاز وتعصب إليه أكثر صوفية المشرق، ولم يأخذ بالمذهب الحنبلي إلا قلة كالجيلاني والهروي صاحب منازل السائرين.

٦- لا يقال إن الاتجاه إلى دارسة العلوم الشرعية كان سيرا على الاتجاه العام للتربية الإسلامية، ولم يكن مقصودًا من الطالب، بمعنى أنه لم يتجه إلى هذا التحصيل لكي يكون عدة للسلوك ثم يكون إعدادًا للمشيخة فيما بعد حتى يمكن لك أو يصح أن تجعله جزءًا من خطة كاملة لإعداد المربي الصوفي لأنا نقول: إن كثيرًا منهم كان ينتمي إلى سلالات صوفية وكانت تعي هذه الخطة، ومن لم يكن ينتمي كان شيخه يأمره أن يكمل دراسته الشرعية قبل الالتحاق بالطريق الصوفي على نحو ما رأينا أبا الدقاق ينصح القشيري.

٧- إن طلاب العلم من الذين صاروا فيما بعد مشايخ الطريق كانوا يقصدون كبار العلماء للتتلمذ عليهم ولم يفرقوا بين انتماء هذا العالم للصوفية أو عدم انتمائه طالما أنه تتوافر فيه الشرائط الصحيحة للتعليم وله دراية بمجال تخصصه، ومن الجدير بالذكر أن العلماء من الفريقين كانوا أهل نصفة لا يطعن هذا على ذاك، ولا ينال سني من صوفي لأن التفرقة بهذا المفهوم كانت منعدمة طالما أن الصوفية كانوا سنيين على نحو ما بينا.

وإن السنيين في معظمهم كانوا على قدر كبير من الزهد والورع مما يجعل الفواصل بين الفريقين مفقودة أو ضيقة للغاية على عكس ما يوجد في أيامنا من اتساعها نظرًا لتقصير المريد في الجانب الشرعي، ولتشدد السني وعدم رقته.

٨- ولم يثبت أن واحدًا من المشايخ سلك الطريق وسار شوطًا بعيدًا أو قريبًا ثم

رجع منه إلى الشرع بل القاعدة التي اتبعها رجال الطريق هي البدء من ساحة الشـــرع والعناية به أولاً لأنه هو الأساس، وقواعده هي التي تضبط السلوك وتحكم سير المريد وبدونها لا يستطيع السير بأمان واعتدال.

٩- لا يخفـــى عليـــنا أن عددًا كبيرًا من رجال القوم برزوا من خلال مؤلفاتهم القيمة، وظهرت الجوانب العلمية المتعددة في لطائف التفسير، وفي علوم السير والمعـــاملات، وفي الفقـــه، وفي الأخلاق والنفس، وفي السُّنَّة، كما سجلت أسمـــاؤهم كمربين كذلك من خلال السلاسل الجيدة والأعداد المتلاحقة من المريدين.

١٠- ولم تغب تلك الحقيقة عن أذهان كُتَّاب الطبقات من الصوفية الذين سجلوا شهرة الشيوخ في العلم قبل أن يسجلوا شهرتهم في الولاية بسوق أقوالهم وما اشتهر عنهم من كراماتهم وتصدير الشهرة العلمية لا يعني فقط مجرد احترام العـــلم بـــل ويضاف إليه الإفصاح عن خطة القوم في الإعداد وأنها تقتضي البداية بالتبحر في العلوم ثم الخبرة في السلوك بعد ذلك.

١١- إنـــني قد توسعت إلى حد ما في ذكر بعض مشاهير الشيوخ في كل عصر مع ا لإتيان بشيء من أقوالهم الموضحة لاهتمامهم العلمي لأدلل بذلك على صـــلة التصـــوف الوثيقة بالعلوم الشرعية وقيامه عليها، ولأبين أن الصوفية عـــلماء قبل أن يكونوا سالكين، وأن أي شيخ لا يتصدر للتربية إلا إذا علم وعمـــل وسلك وتهذب ثم كوشف فاستحق أن يكون مربيًا، وبذا يستحي المنكر على أهل اللـــه طريقهم، ويغض الطرف خجلاً من موقفه، وحياء من سمو قدرهم.

١٢- لست في حاجة إلى القول بأن الشيوخ لم يعلموا فقط وإنما جمعوا بين العلم والعمـــل، والصدق والإخلاص والزهد والورع والنقاء والصفاء وبذا كانوا علماء عاملين يستأهلون الاقتداء بهم فهم أهل لرتبة القدوة.

ثانيا: الشروط الخلقية

إذا كنا قد بينا سلفًا علاقة التصوف بالأخلاق وأنها غاية من غايات السلوك، وإذا كنا سنقف على كثير من صفات وأخلاق وآداب الشيخ عند الحديث على علاقته مع المريدين فإننا سنوجز الحديث هنا عن الجانب الأخلاقي مقتصرين على ما يشير بوضوح إلى ربط صلاحية العالم للتربية بالأخلاق كشرط لتأهيله لتلك الرتبة، مع العلم بأن الصوفية عندما تحدثوا في هذه النقطة لم يلمسوها لمسا كليا وإنما تناولها كل شيخ من وجهة نظره الخاصة، وحسب رغبته في الفضائل الهامة التي يجب أن تتوافر في الشيخ.

فيرى سري السقطي (٢٥١هـ) خال الجنيد وأستاذه أنه يجب في كل من يتصدى للنصيحة أن تتوافر فيه أربع خصال: استقصاء الورع، وتصحيح الإرادة، وسلامة الصدر للخلق مع النصح لهم[١].

بينما يقول سهل بن عبد الله التستري (٢٨٣هـ): لا يستحق الإنسان الرياسة حتى يصرف جهله عن الناس، ويحمل جهلهم، ويترك ما في أيديهم ويبذل ما في يده لهم[٢]. وكذلك يقول الشيخ علي بن محمد وفا: ما رأيته على عظم رتبته، وعلو قدره عندك، يتواضع لعظمة الله، ويتصاغر من خشيته علمًا وحكمة فالزم قدمه فإنه الذي ينفخ الأنوار النورانية في صور صدرك [٣] والشخص الوحيد الذي أشار إلى ضرورة الأخلاق الطيبة كلها هو جلال الدين الرومي الذي أنشد في المثنوي:

قد أفلح كل من كان له خلق طيب وانكسر وخاب كل من كان له قلب

---

(١) السلمي: طبقات الصوفية: ١٥.

(٢) الشعراني: الطبقات الكبرى: ج١: ٦٦، طبقات السلمي: ٤٩.

(٣) الشعراني: الطبقات الكبرى: ج٢: ٤٩.

فالولي هو الإمام الحي القائم سواء أكان من نسل عمر أو من صلب

وإذا جمعنا الصفات الواردة في هذه الأقوال وجدناها تشترط في إعداد المربي أن يكون ورعًا قوي الإرادة سليم الصدر ناصحًا للخلق، يمنع شره عنهم ويتغافل عن شرهم ويترك ما في أيديهم ويبذل ما في يده، عظيم الرتبة، عالي القدر، متواضعًا متصاغرًا من خشية الله، وصاحب خلق طيب على كل وجه، قائمًا بالحدود مراعيًا للحرمات والآداب.

وهذه الأقوال إذا نظرنا إليها مجتمعة أعطتنا تكاملاً في الجوانب الخلقية، واجتمع لدينا عدد من الصفات التي ترشح العالم لأن يكون مربيًّا على نحو ما رأيت من السرد السابق، وإنما آثر الصوفية الاهتمام ببعض الصفات والتركيز عليها دون اشتراط جميع الفضائل واستيفائها وكمالها في حق من يؤهل للتربية السلوكية لأنهم وضعوا في اعتبارهم أن الكمال الخلقي لا يكون إلا لمعصوم أما غيره فيكفيه أن يكون سمته العام طيبًا وأن يكون متصفًا بأمهات الفضائل التي تحقق له تمام الأخلاق فإن ارتقى بفضل الله إلى الكمال كان أفضل وأسمى وهو ما اقترب إليه الشيوخ والعارفون من كمال الخلق وأصفيائهم.

ثالثا: الشروط السلوكية العامة

نعني بهذه الشروط ضرورة توافرها في الشيخ بأن يكون لدى القائد الخبرة الكافية بالسير في هذا الطريق، وأن تكون قد أتت له من خلال سيره وتجربته الذاتية، وأن يتخلص مسبقًا من كل ما يحب الآخرون أن يتخلصوا منه، وأن يواصل محافظته على استعداده الدائم وملاءمته المستمرة لتلك المهمة، قائمًا بما يؤهله لها.

---

(١) قاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام: ٣١٩.

ويفصح لنا الهجويري عن أول شرط وهو الوقوف التام على علل المرضى قائلاً: مشايخ هذه الطريقة هم أطباء القلوب وحين يكون الطبيب جاهلاً بعلة مريضه فإنه يهلكه بطبه، لأنه لا يعرف تطبيبه ويجهل مواطن دائه، فيجعل غذاءه وشرابه مخالفًا لعلته.

ويبين الجيلاني الشرط الثاني بضرورة أن يكون الشيخ قد قطع طريق المجاهدة فإنه لا يبصر العيوب ولا يعرف العلل إلا بذلك، ولا يجوز له التصدي للإرشاد إلا بعد اجتياز الطريق كله ولا بد أن يكون الشيخ قد قطع طريق المجاهدة أولاً، وبدون هذا فإنه يقول له: لا تتعد إلى غيرك وقد بقي عندك بقية تحتاج إلى إصلاحها، ويحك أنت لا تعرف كيف تخلص نفسك وأنت أعمى كيف تقود غيرك؟ إنما يقود الناس البصير، وإنما يخلصهم من البحر السابح المحمود، وإنما يرد الناس إلى الله عز وجل من عرفه أما من جهله كيف يدل عليه[1].

ويوافق سيدي إبراهيم الدسوقي على هذا الشرط قائلاً: من لم يكن مجتهدًا في بدايته لا يفلح له مريد فإنه إن نام نام مريده، وإن قام قام مريده، وإن أمر الناس بالعبادة وهو بطال أو توهم عن الباطل وهو يفعله ضحكوا عليه و لم يسمعوا منه[2].

وينتقل الجيلاني إلى الشرط الثالث وهو عدم الادعاء لرتبة فوق ما للعبد، وضرورة الزهد في الدنيا ويعلن: يا من تمشيخ وتصدر وزاحم الشيوخ المخلصين في أحوالهم، ما دمت تطلب الدنيا بنفسك وهواك فأنت صبي ذلك طبع محض،

(١) الجيلاني: الفتح الرباني: ٥.
(٢) الشعراني: الطبقات الكبرى: ج١: ١٤١.

النادر من كل نادر[1].

ثم يحدثنا عن الشرط الرابع وهو تصفية الطبع وتنقية الهوى فلا يكون له حاجة نفسية في صحبة المريد بل يصحبهم لله وللآخرة يقول: اصحب من يعاونك على جهاد نفسك لا من يعاونها عليك إذا صحبت شيخًا جاهلاً منافقًا صاحب طبع وهوى كان معاونًا لها عليك، الشيوخ لا يصحبون للدنيا بل يصحبون الآخرة وإذا كان صاحب طبع وهوى صحب للدنيا، وإذا كان صاحب قلب صحب للآخرة وإذا كان صاحب سر صحب للمولى[2].

ويضيف الشيخ علي بن محمود وفا شرطًا خامسًا هو الهمة، وملازمتها في كل مراحل الهجرة إلى الله وذلك في قوله: من شرط إمام الهدى أن يهاجر بهمته عما تشتهي النفوس البشرية، وكل من أريد لحق فإنه لا يقول به حتى يخرج ويهاجر بهمته عما يشغل عنه ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3] [النساء:٨٩] والآية على سبيل الرمزية لأنها قيلت في ولاية المؤمن للكافر لا في ولاية المؤمن للمؤمن، ولا في ولاية المريد لشيخه فهى من باب سبيل استعارة موقف لموقف.

ويشترط السهروردي شرطًا سادسًا هو الخلوة الدائمة للشيخ مهما وصل أو ارتقى لأعلى الرتب معللاً ذلك بأن: طبع البشر لا يستغني عن السياسة قل ذلك أو كثر لطف ذلك أو كثف[4] وما دام الأمر على هذه الشاكلة فلا بد أن يكون

---

(١) الجيلاني: الفتح الرباني: ١٦٠.
(٢) نفسه.
(٣) الشعراني: الطبقات الكبرى: ج٢: ٥١.
(٤) السهروردي: عوارف المعارف: ٢٠٤.

للمربي خلوة خاصة، ووقت خاص لا يسعه فيها معاناة الخلق حتى يفيض على جلوته من خلوته، ورسول الله ﷺ وهو أكمل الخلق وأطهرهم نفسًا وأزكاهم قلبًا، وأصفاهم سريرة كان له خلوات في الليل وصلوات يصليها وأوقات يخلو فيها، والمربي أحوج إلى ذلك حتى لا تركن النفس إلى المخالطة وتظن أنها قادرة عليها فيكون مسوسًا بها.

فمن توافرت فيه هذه الشروط وكملت هذه الخصال فهو ولي الله الذي ينبغي لكل مؤمن أن يقر له بذلك ويتبرك به، وبالنظر إليه والقرب منه على حد تعبيرات الإمام الشوكاني في كتابه «قطر الولي إلى حديث الولي».

رابعا: الشروط الباطنية الخاصة

إذا وصلنا إلى هذه الشروط وهي نهاية المطاف مع الخصائص الضرورية التي يجب أن يتصف بها المربي وجدنا أن التسلسل في وضع الشروط وترتيبها ضروري ومنطقي لأن الدارس للشريعة وهي النوع الأول من شروط الإعداد، والسائر بمقتضاها يلزمه العمل بها والتخلق بآدابها فإذا قطع هذين ثم واصل السير على الطريق بالهمة والسمات التي ذكرناها في المرحلة الثالثة تصفى باطنه وقلبه وسره ووصل إلى المرحلة الرابعة التي تقع تحت أيدينا الآن والذي يبدأ شرطها الأول بالبصيرة.

وإنما جعلها الهجويري وأحمد بن زروق[1] شرطًا أوليًّا وأولاً في الوقت ذاته لوردوها في الآية الكريمة ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف:١٠٨] عقب الحديث عن مهمة الدعوة التي كلف بها الرسول ﷺ، وكلف بها كل مؤمن يجد في نفسه القدرة مقالاً وحالاً للقيام بها.

---

(١) الشنجيطي: الجيش الكفيل: ١٣٢

أما الشرط الثاني فإنه مترتب على جلاء البصيرة ونورها لأن من كان كذلك أعطى المملكة والسلطة في أقطار الأرض، وسلم إليه نشر الدعوة، يسلم إليه تغيير الباطل، وإظهار الحق، ويعطيه الله ويعينه، الحق عز وجل قد جعل من خلال أراضي قلوب عباده الصالحين له، العارفين به أنهار الحكم تنبع من وادي علمه من عند عرشه، ولوحة تجري إلى أرض القلوب الميتة الجاهلة به المعرضة عنه،[1] حسبما عبر الجيلاني، فلما انكشفت عين بصيرته، وتطهر وعاء قلبه اتخذه الحق مجرى لينابيع حكمته، وأجرى فيه من ماء علمه ما يروي قلوب الظامئين ويهدي نفوس الحائرين.

ويرد الشرط الثالث الذي وضعه ابن عربي مترتبًا على الشرطين السابقين، إذ من انفتحت مسام باطنه، وانجلت مرآة قلبه، ونظر بعيون بصيرته نطق بالحكمة وهطلت عليه المعرفة، واستطاع بهذا الفضل الإلهي أن يعرف من الناس حوار حركاتهم ومصادرها، والعلم بالخواطر مذمومها ومحمودها وموضع اللبس الداخل فيها من ظهور الخاطر المذموم في صورة المحمود، ويعرف الأنفاس والنظرة، ويعرف ما لهما وما يحتويان عليه من الخير الذي يرضي الله، ومن الشر الذي يسخط الله، ويعرف العلل والأدوية ويفرق الأزمنة والأمكنة، والأغذية، وما يصلح المزاج، ويفرق بين الكشف الحقيقي والكشف الخيالي وتعليم التجلي الإلهي، ويعلم التربية، وانتقال المريد من الطفولة إلى الشباب إلى الكهولة.

ويعلم متى يترك التحكم في طبيعة المريد؟، ومتى يصدق المريد في خواطره؟، ويعلم ما للنفس من الأحكام، وما للشيطان من الأحكام، وما تحت قدرة

---

(١) الجيلاني: الفتح الرباني: ١٤٣، ١٤٤.

الشيطان، ويعلم الحجب التي تعصم الإنسان من إبقاء الشيطان في قلبه، ويعلم ما تكنه نفس المريد مما لا يشعر به المريد، ويفرق للمريد إذا فتح عليه في باطنه بين الفتح الرباني وغيره ويعلم بالشم أهل الطريق الذين يصلحون من الذين لا يصلحون، ويعلم التحلية التي يحلي بها نفوس المريدين والذين هم عرائس الحق[1].

فكل من وصل إلى رتبة الصفاء الباطني والجلاء البصيري كان أدرى بقلوب المريدين، وبنفوسهم، وأقدر على علاجها، وليس ذلك بتجربة سابقة فقط ولكن بنور قلبه، وتعريف الله له، كما يكون أعرف بحركات القلوب وخواطرها، فيميز بين المحمود والمذموم، وخطرة الحق وخطرة الشيطان أو خطرة النفس، كما يفرق بين خاطر النفس وخاطر الشيطان من جهة أخرى ويبين الفتح الرباني من الفتح الظلماني الذي يأتي به الشيطان استدراجًا للسالك، ويعلم بهذا السر الباطني مقدار الصلاحية لكل مريد، ومن يسلك ومن لا يسلك، فليست الخبرة السلوكية وحدها كافية لهذه الإدراكات الدقيقة كلها.

ولأهمية البصيرة وما يترتب عليها في التربية من الأمور السابقة نرى أن رجال التربية الحديثة قد أدركوا ضرورتها بالنسبة للعملية التعليمية فيرون أن معرفة المربي بالمادة العلمية وحدها، ودرايته بالطريقة والوسائل التعليمية التي تعينه لا يحققان معًا النجاح المطلوب من وراء عملية التعليم ولكن هناك ميزة أخرى للمهنة وهي البصيرة النظرية، ومعنى هذه البصيرة النظرية الفهم العقلي لكيفية وسبب ما يقوم به الإنسان من طرق معينة لتأدية وظيفته،[2] وأن هذه البصيرة ضرورية أيضًا لأسباب عملية تمامًا، [3] على حد تعبيرات فيليب فينكس.

---

(١) ابن عربي: الفتوحات المكية: ج٢: ٤٨٢.

(٢) فينسك: فسلفة التربية: ٢٦٠، ٢٦١.

(٣) نفسه.

فقـــد اتفقت وجهة نظر التربية الحديثة مع وجهة نظر التربية الصوفية التي سبقت بكثير من القرون، ويجمعها القول بأن التحصيل العلمي وحده ليس كافيًا في إنجـــاح مهمة التربية، كما أن الخبرة كذلك لا تؤهل المربي إلى معرفة كل ما لدى الطالب أو المريد، وبالتالي فلا بد وراء هذين من قوة أرقى وهي البصيرة.

ومـــع اعترافـــنا بالاتفاق في هذا الجانب إلا أن المراد بالبصيرة لدى الصوفية يختـــلف عـــن مفهومها عند رجال التربية الحديثة فهي عندهم لا تعدو شعاعات العقـــل الـــنظري وإدراكه وفلسفته ا لتجريدية وهو ما لمسناه بوضوح من تفسير «فيـــنكس» لها عندما عناها بالفهم العقلي، أو البصيرة النظرية، أما عند الصوفية فهـــي النور الإلهي في قلب الإنسان والذي به يدرك بلا واسطة تعمل عقلي، أو تفكر ذهني، هي الفراسة أو البرهان المعروفان في الدين.

وتـــبعًا لهذا الاختلاف الجوهري في معنى البصيرة فإنه يترتب عليه أن يكون عملها في المفهوم الفلسفي التربوي محدودًا وقاصرًا، ولا يتعدى التأمل الذهني في المشاكل الظاهرة لاستخراج الحلول الفلسفية لها، أما في المفهوم الصوفي فإن أثرها يشمل الإدراك لظاهر الإنسان وباطنه، وما يصدر عنه من حركات وأقوال، وما يجـــول بخاطره من اهتمامات أو خواطر وإذا اعتمد الحل على قوة العقل الإنسانى وحده في المفهوم التربوي فإن الحلول لدى الصوفيين هي منحة من اللـــه يسوقها لهم، ويقذفها في قلوبهم، وينير بها بواطنهم، وهو بهذا يكون قويًا جليًا، وعامًا شاملاً.

ويـــبقى بعد ذلك الشرط الرابع وهو صلاح الحال وأثره في تربية المريدين، وهو أيضًا مترتب على الشروط السابقة لأن من كان لـــه بصيرة تنقدح في قلبه وذهـــنه صفات المريدين ويستطيع أن يؤثر بصفاء الحال وحسن الاستقامة ، ورقة السيما بما لو نظر إليه المريد لأغناه هذا الكلام، وأثر فيه اللحظ عن اللفظ.

ومن ثم يشترط الهجويري على من يُلبس المريدَ المرقعة أن يكون: مستقيم الحال قد اجتاز عقبات الطريق وذاق طعم الأحوال، وأدرك مشارب الأعمال، وشاهد قهر الجلال ولطف الجمال[1].

فإن كان كذلك فإنه يكلم المريدين بلسان فعله أكثر مما يكلمهم بلسان قوله، فإذا نظر الصادق إلى تصاريفه في مورده ومصدره وخلوته وجلوته وكلامه وركونه ينتفع بالنظر إليه فهو نفخ اللحظ[2] وإذا لم يكن صاحب لحظ لا ينفع له لفظ على حد بيان السهروردي أيضًا.

ولما كان كذلك فإن الشيخ لا يقتصر في تربيته على نقل المعلومات التي في رأسه كما يفعل معلمو المواد الدراسية ولا على التوجيهات التي يصدرها فقط، ولكن ينقل إلى المريد علومًا نظرية حصلها، وتوجيهات سلوكية اكتسبها، ورقائق روحية تذوقها ، ومعارف ربانية استشعرها.

من يحكم بصلاحية المربي للتربية؟

اختيار المدرس في التربية العامة يتم بدخوله دور المعلمين أو كليات التربية ابتداء أو المؤسسات التي أعدت خصيصًا لتخريج مدرسين، أو بالإعلان عن مثل هذه الوظائف لمن يرغب فيها من الجهة المشرفة على التعليم، ثم تقوم الجهة تكليف من تراه للقيام بتلك المهمة والذي يحكم على صلاحيته فيما بعد أو عدم صلاحيته ويقومه هو الجهة المسئولة لأن المهنيين وحدهم القادرون على الحكم على إنجازات أي فرد في ميدانهم[3].

---

(١) الهجويري: كشف المحجوب: ج١: ٢٥٢.

(٢) السهروردي: عوارف المعارف: ٨٧.

(٣) فينكس: فلسفة التربية: ٢٦٤.

وأمـــا بالنسبة إلى المربي الصوفي فإن الأمر يختلف إلى حد ما طبقًا لاختلاف درجات الإعداد فإنه كما عرفت لا يخضع للتربية الأكاديمية وحدها ولا للمهنية فحســـب بـــل أنه يجمع بينهما وبما إنه يجمع بينهما، وبما أنه يبدأ أولاً في تحصيل الجانـــب الثقافي ثم يثني بالجانب التربوي أو المهني، وبما أنه ليست هناك مقررات محـــددة ولا مـــناهج دراسية موزعة على كل فترة كتلك التي توجد تحت أيدي الطالـــب في التربـــية العامة يمكن للمريد أن يقرأها ويستوعبها ثم يتخرج وتشهد لـــــه جهة التخرج بصلاحيته، وإنما المتبع في النظام التربوي الصوفي كما سنبينه فـــيما بعد هو منهج لـــه بداية ولـــه سلاسل متبعة وعلى السالك أن يقطع كل مرحلة منها ولا ينتقل إلى الأخرى إلا بعد اجتياز الأولى مهما استمر في تلك السلسلة.

وقد لا يقطع السلاسل ليصل إلى درجات الكشف في النهاية، وبالتالي يظل مـــريد طوال حياته، وتنتهي و لم يصل إلى أعتاب القرب الشهودي، وعلى فرض أنـــه يتقدم ويكاشف في تقدمه فإن الذي يدرك ذلك أيضًا هم رجال المهنة ومن لديـــه خبرة ومكاشفة بالطريق، وأبنائه هم أقدر على فهم وتقويم السائرين كما يوجد في التربية العامة.

أي إن الطريق الصوفي يختلف في مدة التنقل وفي نهايته كما يختلف في تحديد الجهـــة الـــتي تأمر بمزاولة التربية، أما المدة فإنه ليس هناك حد معين للسنين التي يقضيها كل سالك في أي مرحلة ولكنها تتوقف على الشخص ومقدار شفافيته، وكمـــا لا يوجـــد حد معين في السنوات التي يقضيها في السلوك عامة ليتخرج بعدها شيخًا مربيًا.

ولـــيس كـــل سالك يمكنه أن يصل إلى درجة المشيخة والنصح والتوجيه، وحتى من يصل منهم قد لا يؤمر من شيخه بمزاولة التربية، وإنما يؤمر من كان فيه الأهلـــية الكاملة بالشروط التي سبق بيانها من شرعية إلى أخلاقية إلى سلوكية إلى

باطنية، وتتعدد جهة إذن بالدعوة فقد يكون شيخًا، وقد يكون عن طريق النبي ﷺ وقد يكون بإذن منامي صريح من الله سبحانه وتعالى على قدر حال الواصل وقربه، وسمو منزلته.

من يصلح للمشيخة ومن لا يصلح؟

لم نر رجالاً يحبون علمهم ويقدرون ما فيه مثلما رأينا الصوفية لما في التصوف من سمو الموضوع وأهميته، ولما فيه من دقائق المعارف ورقتها، ولما يحمل من الأذواق والمعاني وبريقها ومن قوة الصلة بين العبد وربه وجلالها، ومع توقيرهم الشديد للمخلصين الصادقين ومراعاة الأدب مع الشيوخ الأجلاء ومع كل هذا لم نر رجالاً لا يجاملون أحدًا على حساب علمهم مهما كان منتسبًا إليهم أو مشايعًا لعلمهم، ولذلك يحاسبون على أدنى هفوة، ولا يتجاوزون عن أقل زلة: ظاهرة كانت أو باطنة.

وترجع هذه الدقة في المحاسبة وعدم التجاوز على غيرهم على علمهم وعلى ما يرد من ربهم، فكم كانوا يخشون على هذا النهر العذب المتدفق أن يعكر بأدنى حجر يلقى فيه، وكم كانوا يخافون على دقة مسالكهم وعذب مواردهم أن تشاب بشائبة سالك ما، فالغيرة على علمهم جعلتهم حريصين كل الحرص أن ينسب إليهم ما ليس منهم، أو يدخل عليهم ما ليس فيهم، أو يصاب حد السيف في طريقهم بثلمة، وإذا كان كذلك بصفة عامة فشيوخ الطريق وقادته، ومربوه من باب أولى.

ومن هنا فإن أبا الخير الأقطع المتوفَّ نيف وأربعين وثلاثمائة كتب إلى جعفر الخلدي يقول له: قد جعل ذنب الفقراء عليكم في هذا الزمان، وأصل ذلك منكم

لأنكم تصدرتم للمشيخة قبل الكمال، فاشتغلتم بتأديب نفوسكم عن تأديبهم[1].

فلا يصح للشيخ أن يسرع إلى نصح المريدين على أنه شيخ إلا بعد استيفاء كامل للشروط السابقة وبعد الإذن بالدعوة، وأي نقص يحدث أثناء السير و لم يعالج أي خلل في الشرائط الخاصة بإعداد المربي أو فيما يحتاج إليه المريد في تربيته فلا يحل لمن كان لديه هذا النقص أو الخلل أن يقعد على منصة المشيخة فإنه يفسد أكثر مما يصلح ويفتن أكثر مما يهدي، كالمتطبب يعلل الصحيح، ويقتل المريض[2] على حد تعبير ابن عربي، فكل من فقد شرطًا لا يصح أن يكون مربيًا.

هذه واحدة وثانية فإنه مهما وصل السالك إلى النهاية و لم يعرف رسوم الطريق وقواعده التي يربي عليها المريدين فلا يجوز له أن يتشيخ أو يتصدر للدعوة يقول محمد أبو المواهب الشاذلي: صحبة المبتدئ للمنتهي الذي لم يقف على مراسم الرسوم مضرة غير نافعة[3].

وثالثا فإن الشيخ عدي بن مسافر(٥٥٨هـ) يحذر من البدع ويقول للمريدين: من كانت فيه أدنى بدعة فاحذروا مجالسته لئلا يعود عليكم شؤمها ولو بعد حين[4].

ورابعًا فإن الدعوى علامة بقاء النفس وشهوتها، وعدم نقائها، وإذا وجدت في عبد فإنه لا يرقى للتربية لكونه معلولا في نفسه بدعواه، سواء كانت الدعوى في أمر ظاهر أم باطن يقول سيدي أبو الحسن الشاذلي: من ادعى فتح عين قلبه

---

(١) الشعراني: الطبقات الكبرى ج٢: ٩٣.
(٢) ابن عربي: الفتوحات المكية: ج٢: ٤٨٢.
(٣) الشعراني: الطبقات الكبرى: ج٢ : ٦٨، ١١٨، ٨، ١٣٢.
(٤) الشعراني: الطبقات الكبرى: ج٢ : ٦٨، ١١٨، ٨، ١٣٢.

وهو يتصنع بطاعة الله تعالى أو يطمع فيما في أيدي خلق الله تعالى فهو كاذب[1].

ويوافقه على ذلك الشيخ أبو مدين المغربي قائلاً: من خرج إلى الخلق قبل وجود حقيقة تدعوه إلى ذلك فهو مفتون وكل من رأيته يدعي مع الله حالاً لا يكون على ظاهره ومنه شاهد فاحذره[2].

ومن وجهة خامسة يتفق أبو سعيد بن أبي الخير (٤٤٠هـ) والسهروردي البغدادي (٦٣٢هـ) على أن السالك الذي لم يتداركه الحق بالجذبة و لم يفتح عليه في الطريق بالمكاشفات والمطالعات لا يصلح للمشيخة، وكذا لا يصلح له من جذبه الله ولكن طار عقله، وطاش لبه فلم يأخذ في طريق المعاملات حيث سقطت عنه التكليفات.

وأما من سلك وقرب، وكوشف وعرف، أو جذب وسلك فإنهما هما اللذان يصلحان للتربية وتهذيب الغير ويؤهلان للاقتداء بهما، نرى هذا بوضوح عند أبي سعيد الذي قص لنا حادثة مع أبي الفضل حسن وهو الشيخ الذي كان يتلقى عنه في خانقاه، قال : كنا جلوسًا ذات ليلة وقد نام المريدون وأغلقوا باب الخانقاة وباب الربط، ودار الحديث مع شيخي في المعرفة فرأيت لقمان السرخسي وقد طار فوق الخانقاة ثم جلس أمامنا وأجاب على مشكلة عرضت لنا أثناء الحديث فزال الإشكال فيها، ثم قام لقمان وطار ثانية وخرج من النافذة، فقال الشيخ أبو الفضل يا أبا سعيد هل ترى مكانة هذا الرجل في هذه الحضرة؟ قلت أجل قال:

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

إنه لا يصلح قدوة قلت ماذا؟ قال: لأنه لا علم له[1].

وبالنظر في هذه القصة نجد أن لقمان حل مشكلة مع جولة فوق الرءوس طار خلالها مرتين فهو إذا صاحب علم كشفي وحال وكرامة، ومع ذلك أخبر شيخه أبو الفضل أنه لا يؤهل للتربية لأنه لا علم لـه، ولا بد أن يكون نفي العلم مرادًا به معنى آخر غير المتبادر إلى الأذهان، هذا المعنى يتلخص في أن الشيخ أبا الفضل فرق بين نوعين من العلم: نوع هو من عين المواهب، ونوع من جهد المكاسب، فإذا كـان الشيخ لقمان طار وكوشف وعرف حل المعضلة في جذبته فإنه ليس من الذين كوشفوا وأبقى الله لهم عقولهم بل طاش عقلـه و لم يسلك بعد الجذب.

وبالتالي فليس لديه علم بمراحل السير وطرائق المجاهدة وليس لديه الخبرة الكافية في تربية المريدين لأنه لم يسلك بعد الجذب حتى يعلم ما يلزم للسالكين في سيرهم، وحتى يكتسب من السير خبرة كافية تؤهلـه لاعتلاء رتبة التوجيه والتربية، ومن هنا فلقمان مجذوب مكاشف وليس سالكًا بالمعاملة فلا يصلح للمشيخة.

لأنها تريد رجلاً جذب وسلك وتعلم وتأهل، وعلم كيف يربي أو سالكًا سار وكابد ثم كوشف، فالعلم المنفي عن لقمان هو الدراية بلوازم التربية وقواعدها وعلم الخبرة في التسليك لا مطلق العلم.

أما السهروردي هو الذي فصل بين من يصلح للمشيخة ومن لا يصلح تفصيلاً لم يدانه فيه غيره حيث ذكر أن أمر الصالحين والسالكين ينقسم إلى أربعة أقسام: سالك مجرد ومجذوب مجرد، وسالك متدارك بالجذبة ومجذوب متدارك السلوك.

فالسالك المجرد لا يؤهل للمشيخة ولا يبلغها لبقاء صفات نفسه عليه فيقف

(١) ابن النور: أسرار التوحيد: ٤٤.

عند حظه من رحمة الله تعالى في مقام المعاملة والرياضة، ولا يرتقي إلى حال يروح بها عن وهج المكابدة.

والمجذوب المجرد من غير سلوك يبادئه الحق بآيات اليقين ويرفع عن قلبه شيئا من الحجاب، ولا يؤخذ في طريق المعاملة وهذا أيضا لا يؤهل للمشيخة، ويقف عند حظه من الله مروحًا بحاله.

والسالك الذي تداركه الله بالجذبة هو الذي كانت بدايته بالمجاهدة، والمكابدة، والمعاملة بالإخلاص والوفاء بالشروط ثم أخرج من وهج المكابدة إلى روح الحال..... وتروح بنسمات الفضل، وبرز من مضيق المكابدة إلى متسع المساهلة وأونس بنفحات القرب وفتح له باب من المشاهدة..

ويؤهل مثل هذا للمشيخة، وكذلك يؤهل لها بدرجة أقوى من السالك المجذوب ذلكم الذي ألحق الجذب والكشف وأنوار اليقين، ورفع عن قلبه الحجب واستنار بأنوار المشاهدة مع دوام المعاملة والسلوك[1]، والصنفان الأخيران هما اللذان علما وعرفا وكوشفا وهما وأمثالهما الكُمَّلُ من الخلق أهل المشيخة والاقتداء.

وسادسا: دعونا نقف مع ابن عربي لحظات في هذا المجال لأن وقفاتنا معه ستزيد ما نحن بصدده تأكيدًا على أن الصوفية رفضوا أن يعتلي رتبة المشيخة من نقص تربية أو صفة أو علمًا أو حالاً، وتوضيحا لمن يرتضونه مربيًا وما هي الصفات اللازمة له؟ بجانب أن هذه الوقفات هي تريث قليل مع رجل متهم من كثير داخل رحاب التصوف وخارجه، فلعل هذا التريث يطلعنا على الوجه المستنير لابن عربي، ويصحح إلى حد كبير ما أشيع عنه من انحراف وخروج.

---

(١) السهروردي: عوارف المعارف ٧٥، والجيش الكفيل للشحنيطي: ١٣٣.

لا يرتضي ابن عربي لرتبة المشيخة من كان صاحب أحوال وتبديل ولكن ليس له سلوك، ولا من أساء أدبًا من آداب الشرع فيقول: يوجد قسم من الشيوخ أصحاب أحوال عندهم تبديل .. فهم لهم أحوالهم ولا يصحبون، ولو ظهر عليهم من خرق العوائد ما عسى أن يظهر لا يعول عليه مع وجود سوء أدب مع الشرع فإنه لا طريق لنا إلى الله إلا ما شرعه فمن قال بأن ثم طريقًا إلى الله خلاف ما شرع فقول زور، وإذا كان كذلك فلا يقتدى بشيخ لا أدب له وإن كان صادقًا في حال ولكن يحترم،[1] وهو المجذوب بلا سلوك عند السهروردي.

أما الذين يقر بهم هداة ودعاة فهم شيوخ عارفون بالكتاب والسنة قائلون بها في ظواهرهم متحققون بها في سرائرهم، يراعون حدود الله، ويوفون بعهده، قائمون بمراسم الشريعة، لا يتأولون في الورع، آخذون بالاحتياط مجانبون لأهل التخليط، مشفقون على الأمة، لا يمقتون أحدًا من العصاة، يحبون ما أحل الله، ويبغضون ما أبغض الله، لا تأخذهم في الله لومة لائم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر المجمع عليه، يسارعون في الخيرات، ويعفون عن الناس، يوقرون الكبير ويرحمون الصغير، ويميطون الأذى عن طريق الناس.

يدعون في الخير بالأوجب فالأوجب، يؤدون الحقوق إلى أهلها، يبرون إخوانهم بل الناس أجمعين، لا يقتصرون بالجود على معارفهم، جودهم مطلق، الكبير لهم أب، والمثل لهم أخ وكفء، والصغير لهم ابن، وجميع الخلق لهم عائلة، يتفقدون حوائجهم.

إن أطاعوا رأوا الحق موفقهم في طاعتهم إياه، وإن عصوا سارعوا بالتوبة والحياء من الله، ولاموا أنفسهم على ما صدر منهم، لا يهربون في معاصيهم

---

(١) ابن عربي: الفتوحات المكية٢: ٤٨٢، ٢٨٣.

للقضـــاء ولا القدر فإنه سوء أدب مع اللـــه، هينون لينون، رحماء بينهم، تراهم ركعًـــا سجدًا، في نظرهم رحمة لعباد اللـــه كأنهم يبكون، الهم أغلب عليهم من الفـــرح لما يعطيه موطن التكليف، فمثل هؤلاء الذين يقتدى بهم ويجب احترامهم وهم الذين إذا رُءوا ذكر الله[1].

وتبرز من خلال نصوص ابن عربي عدة حقائق: أهمها أنه لا يصلح للمشيخة مـــن كان صاحب حال يخلط أو يقعد عن السلوك أو يبدل في شيء، فإذا نظرنا لحالـــه الذي كاشفه اللـــه به رفقنا به واحترمناه، وإذا نظرنا إلى خلطه وعدم سلوكه عذرناه لطيش عقلـــه وذهاب لبه.

ومـــن هـــذه الحقـــائق نرى أن ابن عربي قيل لرتبة المشيخة من كان مستجمعًا للشروط، عارفًا بالكتاب والسنة ظاهرًا ومتحققًا بها باطنًا ، قائمًا بها، مراعيًا لحدودها، وموفيًا بعهد اللـــه فيها، يأخذ بالاحتياط ولا يتأول ولكن يلزم جانب الورع في كل أمر، يبتعد عن أهل التخليط، قائمًا بالدعوة للبر والفاجر، ومحبًّا للطائع لطاعته.

ولايكـــره العاصـــي لذاته بل لمعصيته لأنه إن كرهه لا يدعوه ولا يقبل منه العاصـــي بل يفتح قلبه كي يستطيع التأثير في الجميع على عكس ما يفعل دعاتنا اليوم من تفسيق لأقل معصية، ورمي بالإلحاد والزندقة عند أدنى خروج، وإغلاق للقلب على المسلمين لأدنى اختلاف حول فرعية.

ويســـوق لنا ابن عربي في نصه السابق صفات أخلاقية عظيمة يراها ضرورية للشـــيخ وهو من الوضوح بما لا يحتاج معه إلى بيان وتشير النصوص بوضوح إلى الشروط التي سقناها في إعداد المربي.

---

(١) المرجع السابق.

الفصل الثالث

آداب الشيخ مع المريد

قبل أن نخوض في بيان هذه الآداب ينبغي أن نعلم أن الآداب لها منزلة خاصة عند الصوفية وأنها تأخذ طابعًا ذا سمات أخلاقية، وشرعية، وإلهية، ولها دخل كبير في التربية، وتعتبر جزءًا هامًّا من المنهج الذي يتبعه الصوفية في تهذيب طلابهم ومن الطريقة كذلك، ولذا لا تخلو مرحلة من المراحل إلا وتميزت بآداب من نوع خاص، فللشيخ آدابه وللمريد آدابه، وللسلوك والتهذيب آدابهما، وقد آثرنا أن نجعل الحديث عن معنى الآداب وشعبه إلى فصول تالية مكتفين بإشارة وجيزة جدًّا هنا.

وآداب الشيخ مع المريد من الأساسيات الهامة في التربية ولا يكاد كتاب صوفي يخلو منها ومن تفصيلها وسردها مع تشابهها، وقد فضلنا أن نقسمها إلى عدة أقسام: منها ما يتصل بالآداب العامة في المعاملات العادية، وما يتصل بالآداب الظاهرة في النصح والتوجيه، وما يتصل مباشرة بالتهذيب النفسي والباطني وذلك تيسيرًا لفهمها وتقريبًا لها.

وهذه الأقسام مهما فصل بينها بفواصل فإنها ستبقى اعتبارية لأنها كلها متوجهة إلى غاية واحدة وهو نفع المريد وترويضه، ثم إنها كذلك جزء من الطريقة في التربية لدى الصوفية، وتحمل في طياتها كثيرًا من فلسفات الطريقة التي يتحدث عنها رجال التربية في هذه الأيام، ومع أن الآداب التي ينبغي أن يتبعها الشيخ مع مريديه وضعت أساسًا لخدمة الطريقة في التربية إلا أنها مع هذا تتوجه إلى الشيخ كذلك حيث تحفظ عليه نقاءه وطهره وصفاءه، ولا تجعل الآفات تتسرب إلى نفسه أو قلبه.

الآداب العامة في المعاملة

ليس معنى أن الصوفي لـه منـزلة كبيرة في نفوس مريديه، وأن المربي يحظى بقـدر كـبير من التبجيل والاحترام أن يغض الطرف عن حق مريده في حسن المعاملـة، أو ينـتظر من المريد أن يقوم بكافة الحقوق عليه دون أن يؤدي الشيخ لـلمريد الحقوق العامة التي تجب على المسلم للمسلم، و على الصاحب لصاحبه مسـتندًا في هـذا الإهمال على أنه أستاذه فهو أولى بأن يأتي المريد لـه دون أن يذهب هو كما يفعل غالبية المربين في أيامنا.

وإنمـا وضـع الصوفية آدابًا في هذا الباب أعطت للمريد حقوقه كاملة ، وألزمـت الشيخ أن يؤديها بصورة دقيقة، وأن يُقْدِم على فعلها قبل المريد، حتى رأينا أنه في المواقف التي تكون من حق الشيخ يتنازل عنها ويعطيها للمريد ويراه بهـا أولى، ودائما يؤثره على نفسه، ويحس به في كل ملمة أو مسرة، ويقدم إليه ولا يأخذ منه، ولا بأس هنا أن نقدم بين يدي القارئ سجلاً من الحوادث الدالة على مراعاة هذه الآداب.

١ـ احترام المريد والتواضع معه

فقـد جرت سنة المشايخ في التربية على توقير الكبير للصغير واحترام الشيخ لمـريده، والتواضـع معه، وعدم الاستعلاء عليه وحسن خلقه مع أهل الإرادة والطلب، والتنازل عن حقه فيما يجب لـه من التبجيل والتعظيم، ويظهر هذا في سـلوك الجنـيد (٢٩٧هـ) عندما التقى بأبي محمد الحريري (٣١١هـ) فابتدأ الحريـري بالجنـيد وسلم عليه فلما أتى منـزلـه، وصلى الغداة التفت فوجد الجنـيد واقفًا فقال الحريري للجنيد: يا سيدي إنما ابتدأت بالسلام عليك لكي لا تتبعني إلى هنا فقال الجنيد: يا أبا محمد هذا حقك وذاك فضلي[1].

---

(١) السراج: اللمع ٢٧٣.

وحكي الرقي قال: كنت بمصر، وكنا في مسجد مع جماعة من الفقراء جلوسًا فقدم الزقاق (٢٩١هـ) فقلنا نقوم نسلم فقام إلى السارية يصلي فلما فرغ من صلاته جاءنا فسلم علينا فقلنا له: نحن كنا أولى بهذا من الشيخ فقال: ما عذب الله قلبي بهذا قط[1].

٢ـ إيثار الشيخ مريديه على نفسه

قد يريد الشيخ حاجة لنفسه أو لأولاده صلبًا، وينظر فيرى مريده في حاجة إلى شيء ما فيقدم حاجة المريد على نفسه وولده، وذلك مثلما حدث من أبي محمد القلانسي عندما كان يشتري لتلميذه إبراهيم الصايغ بما يقع في يده من الدراهم الرقاق والشواء والحلوى ويؤثره على نفسه[2]، قال تعالى:﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر:٩].

وهو مبدأ إسلامي واضح، ويرجع السر في استعمال هذه الفضيلة بالذات داخل إطار التربية الصوفية إلى عدة أسباب منها: غرسها في النفوس بالاقتداء، وخوف الشيخ من تشوش المريد بما يتطلب في البداية فينشغل بما يصرفه عن التهذيب، وأما إذا وصل إلى النهايات فإنه لا يتطلع إلى هذا ولا يتشوش به وبالتالي فإذا ما فعله الشيخ معه فإنما يفعله على غرار الصحابة مع إخوانهم وهو المسلك الذي كان يقوم به كل طرف.

أي إن كل صحابي كان يؤثر الآخر على نفسه لتحققهم بهذا الصفة كما وقع من جماعة منهم وهم في الحرب فطلب أحدهم ماء ليشرب فسمع شاكيا آخر فأمر الساقي أن يذهب إلى الثاني فسمع الثاني ثالثًا فأمره أن يذهب إليه فلما

---

(١) السهروردي: عوارف المعارف ١٠٥، واللمع ٢٧٣.
(٢) اللمع: ٢٧٣.

ذهب إليه وجده قد مات فرجع إلى السابقين فوجدهما قد فارقا الحياة إلى ربهم جل جلاله.

٣ـ مواساة الشيخ للمريد

ومن الآداب التي تقتضيها رتبة المشيخة أن يواسى المربي الفقراء والمريدين من حوله وهذه المواساة لأهل الإرادة قد تكون بالمال عند الملك كما فعل الجنيد مع مريد له قد ولدت زوجته فأعطاه مالاً فأبى الفقير فأعطى الجنيد المال لامرأته في الحفرة التي ولدت فيها أمام الزوج، وإذا لم يكن معه ما يواسي به واساهم شعوريًّا ووجدانيًّا على غرار ما فعل بشر الحافي (٢٢٧هـ) إذ تعرى في يوم شديد البرد وهو ينتفض فقالوا له: يا أبا نصر ما هذا فقال: ذكرت الفقراء وأن ليس لهم شيء ولم يكن لي ما أواسيهم به فأحببت أن أواسيهم بنفسي[١]، ومثل هذا الفعل يجعل المربي على صلة شعورية بالبدايات وأهلها، وعلى مقربة من قلوبهم لإحساسه وجدانيًّا بهم، ويؤلف القلوب من حوله.

٤ـ لا يأخذ المربي من المريد أجرا

من القواعد المقررة لدى الصوفية أن المريد لا يأتي للشيخ باختياره بل بقدر من الله سبحانه وتعالى وهدايته، وإنفاذه إليه، فهو هدية منه سبحانه ساقها إليه، وعليه ألا يختار من المريدين أحدًا إذ ربما أساء الاختيار ويدع ذلك لله وحده، وإذا كان كذلك فعليه قبول المريد والإحسان إليه[٢]، ومن جاء الله به من غير تكلف من الشيخ وتخير قلبه ورباه فحينئذ يوفق في تربيته ويسرع فلاح المريد ونجعه فليحذر أن يكون لهوى فيه، فينعدم التوفيق والحفظ في حق المريد[٣]،

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الجيلاني: الغنية لطالبي طريق الحق: ج٢: ١٤٧، وعوارف المعارف: ٢٠٥.

(٣) نفسه.

قال رسول الله: « **الأوراح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**»[1].

وما دام المريد مسوقًا إلى الشيخ من الله، وهو هدية ونفحة جاءته من الحق، وما داموا قد ألزموا الشيخ بقبوله على هذا فإنه لا يليق بالشيخ أن يرتفق من المريد أو ينتفع بشيء من ماله ولا من نفسه بخدمة ولا يأمل عوضًا منه أو من أحد بل يؤدبه ويربيه موافقة لله عز وجل وأداء لأمره، وعلى هذا اتفق الجيلاني والسهروردي عملاً بالخير والوارد، ما تصدق متصدق بصدقة أفضل من علم يبثه في الناس[2].

وأما ما يحدث اليوم من تناول الأشياخ شيئًا من أموال مريديهم فليس معمولاً به عند السابقين من الصوفية و لم يجوزوه إلا إذا كان بأمر إلهي وكان للشيخ فيه نصيب بأن كان هذا المال صدقة والشيخ ممن تجوز عليه، أو يقوم بحاجات المريدين في إطعامهم وكسوتهم، وأنفق بعضهم من ماله مشاركة منه في ذلك.

٥ـ العطف وقضاء الحقوق

لا ينبغي للمربي أن يهمل في حق المريدين استنادًا على إرادتهم، أو على فضله فيهم، أو لعذرهم له يقول السهروردي: وعلى الشيخ التعطف على الأصحاب وقضاء حقوقهم في الصحة والمرض، ولا يترك حقوقهم اعتمادًا على إرادتهم وصدقهم وقال بعضهم: لا تضيع حق أخيك بما بينك وبينه من المودة[3].

---

(١) الجيلاني: الغنية لطالبي طريق الحق: ج٢: ١٤٧، وعوارف المعارف: ٢٠٥.
(٢) نفس المرجع السابق.
(٣) السهروردي عوارف المعارف ٢٠٥.

العمل على بقاء الحرمة

وعلى المربي أن يتجنب المواقف والعادات التي تسقط حرمته بين مريديه فلا ينام معهم ولا يأكل بينهم[1]، إلى غير ذلك من المناسبات التي تجعل المريد ينظر إلى الشيخ نظرة عادية، بل لا بد أن يحافظ الشيخ على حرمته في نفس مريديه بلا استعلاء ولا استكبار وبلا ترفع لطلب نفس أو علو منزلة، أو ازدراء لحال المريد ومنظره، ولرثاثة حال الطالب، أو لعلة به فإن ذلك لا يدخل تحت الغرض المطلوب، ولا يحقق بقاء الحرمة بل يجعل المريد ساخطًا على شيخه إن لمس نفوره منه لعلة به أو داء.

ولم يبتدع الصوفية مثل هذه الآداب بل هي مأخوذة من أقوال الرسول ﷺ وأحواله مع صحابته فقد أخبر أنس بن مالك عن محمود بن الربيع عن عتبان بن مالك قال: قدمت المدينة فلقيت عتبان فقلت حديث بلغني عنك قال: أصابني بعض الشيء فبعثت إلى رسول الله ﷺ أني أحب أن تأتيني فتصلي في منزلي فأتخذه مصلى قال: فأتى النبي ﷺ ومن شاء الله من أصحابه وفي رواية عن أنس قال حدثني عتبان بن مالك أنه عمي فأرسل إلى رسول الله ﷺ فقال : تعال فخط لي مسجدًا فجاء رسول الله ﷺ وجاء قومه.

وعن عبد الله بن عمر أنه قال: كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فسلم عليه ثم أدبر الأنصاري فقال رسول الله ﷺ: «**يا أخا الأنصار كيف أخي سعد بن عبادة؟**» فقال: صالح فقال رسول الله ﷺ: «**من يعوده منكم؟**» فقام وقمنا معه ونحن بضعة عشر ما لنا نعال ولا خفاف ولا قلانس ولا قمص نمشي في تلك السباخ حتى جئناه فاستأخر قومه من حوله

(١) الشعراني: الطبقات الكبرى: ج١: ١٣٦.

حتى دنا رسول الله ﷺ وأصحابه الذين معه.

ويعلق الإمام النووي على الحديثين فيقول عن الأول: فيه التبرك بآثار الصالحين، وفيه زيارة العلماء الفضلاء والكبراء أتباعهم وتبريكهم إياه، وفيه جواز استدعاء المفضول للفاضل لمصلحة تعرض، ويقول عن الثاني: فيه استحباب عيادة المريض وعيادة الفاضل المفضول وعيادة القاضي والإمام والعالم أتباعه[1].

ولا شك أن هذه الآداب تؤلف بين التلميذ والمربي على وجه يخدم التربية ويفيد المتعلم كثيرًا كما أنها تجعل التربية خدمة لا منفعة، وتجعلها رسالة لا حرفة، وترفع من قدر المربي أما تلاميذه، وعند الله سبحانه وتعالى.

الآداب الخاصة وطرق تربية المريد

إنما كانت الآداب السابقة عامة لأنها كما تكون بين المربي وتلميذه تكون بين الأخ وأخيه وبين المسلم والمسلم وبين الكبير والصغير وعلى أي وجه ، ولكن الآداب الخاصة هي تلك التي لا تستعمل إلا في عملية التربية وحدها ولا تكون إلا عندما يكون هناك شيخ وتلميذ، وهي ليست آدابًا مباحة يمكن أن يقوم بها الأستاذ أو لا يقوم بل هي ضرورية تشبه إلى حد كبير الشروط التي يجب مراعاتها في عملية التعليم، أو الحقوق التي للتلميذ على شيخه، كما أن هذه الآداب تعتبر طريقة في التربية، وأسلوبًا من أساليب التعلم الخاص.

١ـ التجرد في اختيار المريد

التلميذ لا يفرض كما قلنا على الأستاذ في التربية الصوفية كما هو متبع في التعليم العام، بل قد يختار الله لشيخ مريده، أو لمريد شيخه كما سبق أن قلناه،

---

(١) النووي: شرح مسلم: ج١: ٢٠٧، ج٢/ ٥٨٧.

وقد يقع الاختيار من الطرفين فالمريد يختار تلميذه والتلميذ يختار شيخه، وإنما راعى الصوفية ضرورة الاختيار إذا لم يكن الاختيار ربانيًّا لأن عمليتهم نوع من التعليم الخاص فلا بد أن يراعى فيها دفة الانتقاء، والتحري في قبول الطالب بمجلس الشيخ، بحيث لا يختار المربي مريده لقرابة أو جاه، أو نسب أو غير ذلك من الاعتبارات لأن مثل هذه المرشحات قد لا تخدم الأهداف الأساسية للتربية، وكذا لا يتعرض الصادق المتقدم على القوم أو المتصدر للمشيخة لاستجلاب بواطنهم -أي المريدين- يلطف الرفق وحسن الكلام محبة اللاستتباع[1] أي أن ينزع من نفسه الرغبة في اتباع الناس له، وأن يكون مخلصًا متجردًا متوجهًا إلى الله وحده في دعوته وتربيته لأنه إذا لم يكن كذلك صار قائمًا على المريدين لنفسه لا لربه، ويشرف عليهم بهواه لا بنظر مولاه، فلا يصل إلى خواطرهم، ولا يكشف الله له الحجاب فيرى ما لديهم.

وبالتالي لا يفيدهم الفائدة المرجوة من وراء التربية الخاصة، وبعد التأكيد على صحة التجرد و الصدق فإنه إذا أقبل المريدون عليه بكثرة فليحذر أن يكون ذلك ابتلاء وامتحانًا، ولا يغتر بإقبال الخلق عليه حتى لا يصرفوه عن ربه، أو يبعث الهوى بقلبه فلا يكون محلاً لسر الله، وبذا يفتقد الأهلية للتربية.

٢ـ اختيار المريد على حسب استعداده

وبما أن التربية الصوفية نوع من التعلم الخاص فيجب مع ما قلناه في الفقرة السابقة أن يتصف الطالب لها بالاستعدادات الخاصة، والمهارات التي يتفرسها الأستاذ فيه، ويراه صالحًا للتوجه نحو الغاية العليا المنشودة عند رجال الطريق، تلك الغاية المتجهة إلى الله في تعرف القرب، وطاعة الإحسان، وعبادة الشهود، ونوال الفتح والوهب بعد التهذيب والترويض.

---

(١) السهروردي : عوارف المعارف: ٢٠٣ ، ٢٠٤.

ولا شك أن مثل هذه الأغراض تحتاج إلى طالب ذي فطرة نقية ونفس تقية، وروح زكية، وإرادة قوية ، وهمة عالية، ووجب أن تراعى هذه الصفات النفسية والقلبية عند اختيار المريد وقبوله في حلقات الشيوخ، وإلى هذا الجانب التربوي الهام ترد أقوال الشيخ مبينة ما يلي:

أولاً: يجب على الشيخ في بداية تفقده حال المريدين حسبما يأمر أبو العباس المرسي[1] (٦٨٦هـ) فيختار منهم ما يصلح للتأدب ويتخلى عما لا يصلح طبقًا لقول أبي علي الثقفي: لا تلتمس تقويم ما لا يستقيم، ولا تأديب ما لا يتأدب[2].

ثانيًا: وإذا قبل الشيخ مريدًا فعليه أن يتعهده بأن يكون مشرفًا على حاله يعرف إلام ينتهي؟ وهل هو من الراجعين أو الواقفين أو الواصلين، فإذا عرف أنه سوف يرتد يومًا عن الطريق يقول له ذلك حتى لا يبدأ وإذا توقف يأمره بالمعاملة، وإذا تحقق من أنه سيصل يتعهده بالرعاية [3]، على حد تعبير الهجويري، فليس القبول شرطًا ضروريًا لاستمرار السلوك بل على الشيخ أن يتحرى الدقة في الاختيار ابتداء، وأن يتحراها بعد مرحلة البداية لينظر هل يستمر المريد في السلوك أو يتوقف؟ وهل إذا سار سيصل أم لا؟

ثالثاً: وإذا ثبت لدى الشيخ صلاحية المريد للاستمرار بعد المراقبة وما يتناسب مع استعداده وميوله الذاتية لا الشهوانية، وعليه أن يعتبر حاله، ويتفرس فيه بنور الإيمان وقوة العلم والمعرفة ما يتأتى منه، ومن صلاحيته واستعداده ويوصيه بما ينفعه، وما يتفق والمواهب الروحية المودعة في تكوينه.

---

(١) الشعراني: طبقات الشعراني: ج٢: ١٤.
(٢) السلمي: طبقات الصوفية: ٨٨.
(٣) الهجويري: كشف المحجوب: ج١: ٢٥٢.

وليعلم المربي أن من المريدين من يصلح للتعبد المحض، وأعمال القوالب، وطريق المقربين[1] ومنهم من يكون مستعدًّا صالحًا للقرب، وسلوك طريق المقربين ولكل من الأبرار والمقربين مبادئ ونهايات فيكون الشيخ صاحب الإشراف على البواطن يعرف كل شخص وما يصلح لـه.

ولقد كان رسول الله ﷺ مبعوثًا إلى هداية البشرية كلها بالدعوة العامة والمطلقة، ومع هذا كان يعلم الناس على قدر عقولهم، فمنهم من يأمره بالكسب، ومنهم من يأمره بالإنفاق ومنهم من يأمره بالصلاة، ومنهم من يعلمه القرآن، وآخر يعلمه الحديث، وغيره يعلمه الاجتهاد، وصحابي يتعلم من النبي ﷺ علم النفاق وسره، كل على قدر استعداده ومواهبه التي خلق عليها.

رابعًا: وعندما ينظر الشيخ ويتفرس أحوال المريدين ويدرك من يصلح للقرب ويوجهه إلى ذلك فعليه في هذه المرحلة وأمام هؤلاء الصفوة من المريدين أن يستكشف بنور بصيرته حسن استعداده الصادق واستئهاله لمواهب الله تعالى الخاصة فيقع في قلبه محبة الصدق من المريدين، وينظر إليه نظرة محبة عن بصيرة[2] كي يكون موضعًا للأسرار فإن أبا الحسن الشاذلي يقول لكل شيخ: مريد واحد يصلح لوضع أسرارك خير من ألف مريد لا يكونون محلاً وضع أسرارك[3].

وبناء على هذا كله فإنه يتضح أمامنا أن العبرة بالكيف لا بالكم، والاهتمام الرئيسي لديهم بقوة الاستعداد والأهلية، وحسن التوجه نحو الأغراض العليا في التربية الصوفية، وبذا تكون عملية التعلم هنا نوعًا من التربية ذات

---

(١) السهروردي: عوارف المعارف: ٢٠٤، ٨٧.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الشعراني: الطبقات الكبرى ج٢: ٧.

القدرات والمهارات الخاصة التي لا يصلح لها كل الطالبين، وهي من هذه الزاوية تختلف على التربية العامة التي لا نشترط فيها ضرورة توافر المهارات الراقية بل إننا ننمي استعدادات الطلاب كل حسب طاقته وصلاحيته دون أن نتخلى عن واحد منهم إلا إذا كان من الشواذ الذين لا يتقبلون تعليمًا نظريًّا فنوجههم إلى المهن والحرف.

٣ـ التدرج والتلطف في التربية

ومن الآداب التربوية الهامة التي يجب مراعاتها لدى الشيخ بالنسبة إلى المريدين، والتي تعد طريقة من طرق التسليك عند الصوفية هي مراعاة التدرج في تهذيب السائر، والتنقل به من حال إلى حال، ومن درجة إلى درجة وذلك بأمره.

أولاً: بعدم متابعة الطبع في جميع الأمور.

وثانيًا: فعندما يرى الشيخ في المسترشدين ضعفًا في مراغمة النفس وقهرها يرفق بهم، ويجوز لهم اتباع الرخص.

وثالثًا: فإذا ثبت السالك وخالط الفقراء وتدرب في لزوم الرخصة مع مجانبة الطبع درجه برفق إلى أوطان العزيمة، بحيث يلغي رخصة ويحل محلها عزيمة حتى يتوطن على العزائم ويصير من أهلها، وتنقاد نفسه بالمجاهدة في هذا الميدان.

ورابعًا: فإذا تفرس فيه صدق العزيمة والقدرة على المجاهدة يأخذه بالأشد من الرياضات التي يعلم أنها لا تتقاصر قوة إرادته عنا إذا ثبت عنده أنه خليق لذلك، وجدير به، وهو من شأنه[1]

ومن جهة خامسة: فإن هذا التدرج يتم من خلال المجالسة مع المريدين والرفق

---

(١) الجيلاني: الغنيمة: ج٢: ١٤٧، وعوارف المعارف: ٢٠٥.

بهم، والتكرم عليهم بشيء من الكرامة التي كرم الله بها المربي[1]، والبسط معهم مع اللطف ولين الجانب، ولقد كان الجنيد يقول للمريدين: لو علمت أن صلاة ركعتين أفضل من جلوسي معكم ما جلست عندكم[2]. والرفق والانبساط للمريد أقوى أثرًا من علوم المجاهدات وعليهما تنشرح نفس السالك بخلاف التحدث عن المكابدة وطرائق السلوك الشديدة فإنها تزعج المريد، ومن ثم ينصح الجنيد (٢٩٧هـ) سيد الطائفة كل شيخ قائلاً: إذا لقيت الفقير فلا تبدأه بالعلم، وابدأه بالرفق فإن العلم يوحشه والرفق يؤنسه[3] والعلم هنا هو علم المجاهدات.

٤ الحكمة في النصيحة

عندما نتتبع أقوال الشيوخ في طرق الأداء بالنصيحة وفي صيغ التوجه نجد أنهم يقدمون لنا لونين من الأساليب:

اللون الأول: ويتجه فيه الشيخ إلى اللين والرفق والتعميم في الإرشاد بأن يقول: أرى من البعض كذا وكذا أو بعضكم يدعي حال كذا، ويظل بهذا التعميم والشيوع حتى يعالج ما بدا على المريد الذي صدر منه ذلك الفعل أو الادعاء ويتخير للنصح أصفى الأوقات حتى يؤثر كلامه في المريدين خشية أن يقع الكلام موقعًا غير مناسب، ويتحرى الصدق والإخلاص في التوجيه والتهذيب، ويعظ بلسانه تلاميذه بينما يتجه بقلبه إلى الله جل شأنه كي يقذف الحديث في قلوب المريدين.

ولا يعمد الشيخ إلى الأقوال التي تدق على أسماع السالكين إظهارًا لحاله

---

(١) الجيلاني: الفتح الرباني: ١٤٤.
(٢) السراج: اللمع: ٢٧٣.
(٣) السلمي: طبقات الصوفية: ٣٧.

بينهم، ولا يقيدونه عن الله أي يكونون حجابًا له عن الحق في تذوق الأسرار والتعبير عنها، ولكن مع مراعاة ذلك ومع انطلاقه في رحاب مولاه والتحدث عنه إلا أنه لا بد أن يحدث المريدين بما ينطقون، وإذا كان الحديث ثناء فينبغي على الشيخ أن يتجنب الثناء الفردي خشية حسد الإخوان على المحمود لذاته، أو لعلاقته بشيخ، لاسيما إذا كان المريدون لم يتجردوا بعد من نوازع النفس وأهوائها وعللها، وهذا النوع من صيغ التوجيه هو ما عرف عن النبي ﷺ، والمشهور عنه من ثنايا أحاديثه الكثيرة التي تقول: ما بال أقوام يفعلون كذا إلى آخر ما جاء في ذلك.

وأما اللون الثاني: فهو ما يظهر من خلال التشدد أحيانًا في التوجيه أو الغلظة القولية، وذلك مثلما جاء في أقوال الجيلاني عندما قال: قد يطلع الله وليه على عيوب غيره، وكذبه، ودعوته في أفعاله وأقواله، وإضماره ونيته فيغار ولي الله لربه ولرسوله ولدينه، وليت الأمر اقتصر على مجرد الغيرة والإفصاح عنها بعبارات دالة على التضجر فقط بل إن الجيلاني قد تجاوز هذا الحد في قوله للمريد: إن كان لك حاجة في دينك فإني لا أحابيك في دين الله عز وجل، عندي وقاحة ترجع إلى دين الله عز وجل قد ربيت بيد خشنة غير محصلة منافقة[1].

ومثل هذا اللون وإن كان قد ورد في توجيه النبي ﷺ للرجل الذي كان يأكل معه بشماله فقال له الرسول: «**كل بيمينك**». قال: لا أستطيع. قال النبي ﷺ: «**لا استطعت**». ويقول راوي الحدث: ما منعه إلا الكبر، قال: فما رفعها إلى فيه.

---

(١) الشعراني: الطبقات الكبرى: ج٢: ١٤، والجيلاني: فتوح الغيب: ١٥٦، والفتح الرباني: ٢٦، ١٤٤، وعوارف المعارف: ٢٠٣ – ٢٠٦.

وأيضًا فإن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق كان يومًا عند عمته عائشة وحدث بينهما حديث أغضب القاسم فلما حضر الطعام قام يصلي فأمرته بالجلوس فأبى فقالت له: اجلس غدر إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا صلاة بحضرة الطعام ولا هو يدافعه الأخبثان**».

ويعلق النووي على الحديث الأول قائلاً فيه جواز الدعاء على من خالف الحكم الشرعي بلا عذر، كما يرى في الحديث أنه كان على القاسم أن يطيع ويحترم أم المؤمنين لأنها عمته وأكبر منه، وناصحة له، ومؤدبة فإن اشتدت عليه فلذلك[1].

نقول ومثل هذا اللون وإن ورد في حديث الرسول وفي مسلك السيدة عائشة إلا أن الجيلاني كما ترى متشدد يصف نفسه بالخروج والوصول إلى حد الوقاحة في اللفظ غيرة على دين الله، وذلك لأن الجيلاني بينه أنه تربى بيد خشنة فهو متأثر بذلك، كما أنه كان حنبليًّا، والحنابلة مشهورون بالتشدد في النصح والغلظة في القول لمن ينتهك حدود الله وما زالوا هكذا إلى يومنا هذا.

ومن ناحية أخرى فإنه يمكن التوفيق بين اللونين السابقين في النصيحة إذا اعتبرنا أن الشدة مناسبة لمن خالف حكمًا شرعيًّا عن قصد وتكبر، أو استهانة به، أو من يشرف على تنفيذه، أو بالمكان الذي يوجد فيه المخالف، وحرمه الشيوخ والأصحاب من المريدين، أما عندما تكون المخالفة بلا قصد، أو عن سوء فهم للحكم، أو عن غلبة الغفلة، أو تكون مخالفة في المسائل الأخلاقية فإن اللين هو المطلوب، وهو الصيغة المثلى للتربية.

---

(١) النووي شرح صحيح مسلم: ج٢: ١٩٥، ج٤: ٧٠٤.

٥ـ المحافظة على الأسرار

وإذا بدا للشيخ من سر المريدين ما أطلعه الله عليه، أو باح به التلميذ فلا يجوز للشيخ أن يطلع أحدًا عليه إذ صدور الأحرار قبور الأسرار كما عرف عند شيوخ الصوفية، وإنما سموا بالأحرار لتجردهم من أسر الدنيا ومن الشهوات ومن قيود الغيرية والسوى حتى خلت القلوب من الشواغل، وتجردت من العلائق فصارت محل الأسرار، وموئل الأنوار.

٦ـ الركون إلى الله دائمًا في التربية

ويتفق أجلاء الصوفية أنه مهما وصل المربي درجة من درجات الترقي فإنه لا يرى لنفسه قدرة على تربية المريد ولا يركن إلى ذاته، أو علمه في ذلك، لأن ما يقوم به الشيخ مع المريد ليس علمًا كسبيًّا يلقنه للسالكين، كما أنه لا يراقب حركات العبد الظاهرة حتى يقوم بنصحه فيها، وإنما أغلب اهتمام الشيخ متوجه إلى النفس وعللها، وخفاياها وهواجسها، ومثل هذا التعمق النفسي يحتاج إلى عون الله دائمًا.

ومن أجل ذلك جعل الصوفية من الآداب الباطنية في التربية ألا يتصرف في المريد بهواه فهو أمانة الله عنده ويستغيث إلى الله بحوائج المريد كما يستغيث بحوائج نفسه ومهام دينه ودنياه[1] وتبدو مهمة التربية هنا مسئولية ذاتية داخلية، وعبئًا نفسيًّا شاقًّا، وإحساسًا رقيقًا لا يفرق المربي واستشعارًا دائمًا بالحاجة إلى رضا الحق جل جلاله، وإلى تعريفه ومعونته.

ويستتبع هذا أن يواصل الشيخ المجاهدة لدوام الوصل، وإصلاح الذات، واستمرار الصفاء، وللتأهيل المستمر للإشراف على المريدين وتهذيبهم، وإلا فلا يصح له أن يقعد متصدرًا ومعلمًا أو مربيًّا.

---

(١) السهروردي: عوارف المعارف: ٧٩.

تلخيص وموازنة

في نهاية هذا الباب الخاص بالمربي، وعلاوة على ما سبق بيانه من الحكم بالدقة على نظرة الصوفية في إعداد المربي نسوق عدة حقائق هامة تتصل بالجانب الصوفي وموازنًا بينها وبين العملية التربوية الحديثة وذلك في نقاط محددة.

أولا: الشمول في خصائص المربي الصوفي

إذا وضعت بين يديك ما قيل عن صفات وخصائص المعلم الحديث من ذكاء وإلمام بالمادة، وبما يرد على التلاميذ وما يجيش في نفوسهم، والإلمام بقواعد التدريس وطريقته، وكونه مصنوعًا ومطبوعًا معًا، وسعة ثقافته واطلاعه، وإلمامه بعلم النفس والأخلاق، وأن يكون لينًا عطوفًا صبورًا ذا إحساس بالمسئولية، حرًّا بعيدًا عن التحزب، قدوة في نفسه وخلقه وثيابه، ويبدو هادئًا أبدًا لا يسقط على الآخرين ما يعتريه في حياته الخاصة فطنًا ذكيًّا حريصًا على مهنته وأخلاقه وتقاليدها، لا ينعزل عن مجتمعه والمحيطين به[1].

بالإضافة إلى الصفات الجسمية التي ينبغي توافرها لو عرفت هذا، ورجعت إلى ما قلناه من شروط إعداد المعلم والمتمثلة في الاهتمام بالجانب الشرعي ومراعاته دراسة وفهمًا وتحصيلاً وتطبيقًا، والتهذيب الخلقي مع الترويض النفسي مع مراعاة الجوانب السلوكية التي وقفت عليها وجدت السبق الصريح لنظرات الصوفية نحو المعلم، وهذا السبق ليس زمنيًا فحسب، بل نظري كذلك سواء من ناحية الجمع بين السعة العلمية والخبرة المهنية أم من ناحية استيفاء الشروط وتصورها، ومع ثبوت السبق لشروط وآداب المعلم الصوفي فإننا نلحظ فارقًا

---

(١) انظر: إيرل بولياس، جيمس يونغ: المعلم أمة في واحد تعريب إيلي واريل: ٥٩، ٦٠، د.عرفات: المعلم والتربية ١١٧ – ١٢٢، صالح عبد العزيز التربية وطرق التدريس: ج ١: ١٦٠ – ١٦٤.

جوهـــريًا بـــين تحقق التصور الصوفي تحققًا على أكمل وجه في المربي من رجال الطـــريق وبين بقاء التصور فيما ينبغي أن يكون عليه المعلم مجرد فروض نظرية في جانب المعلم الحديث.

بمعنى أن الشروط والآداب والصفات التي قيلت عن المربي أو الشيخ أخذت أساسًـــا مـــن الواقـــع والفضائل التي كان عليها الأستاذ، فهي وصف لشخصية تحققت في كل من تصدر للتربية وهي وإن كانت بنسب متفاوتة لكنها وجدت في كـــل واحـــد وتمثلت فيه تمثلاً صريحًا وواضحًا، على حين تظل تلك السمات مجرد تصور فلسفي يصدر من عقول التربويين الذين ينشدون الكمال في شخصية المعلم الحديث، ويتصف ببعضها نخبة من المدرسين ويتجردون من غالبيتها، كما تفقد الأكثرية الساحقة من المعلمين إلى بدايات الصفات وأوليات الشروط فضلاً عن الحاجة إلى الاقتناع بشرف المهنة والتحمس لها.

ولما توافرت هذه الشروط في المربي الصوفي احترمه تلاميذه وأَجَلُّوه وأكبروه، ولم يكـــن الأمر كذلك لدى المعلم الحديث مع تلاميذه، هذان الطرفان المهمان جدًّا واللذان يفتقدان إلى حسن الصلة بينهما، وإلى ضرورة تحقيق الوفاق والوئام بـــين أغراضـــهم ومســـالكهما، كي ينتجا معًا إنتاجًا سليمًا في مجال هو أفضل المجـــالات في هـــذه الحـــياة ويضاف إلى هذا الفارق الهام فوارق عدة: منها سمو الغرض الذي تسعى إليه التربية الصوفية عن غيره والدقة في صنع المربي وإعداده، وإيمانـــه برســـالته ومنـــزلتها العليا، ونقاؤه التربوي وتجرده عن الشهرة والمال، وصـــلته الدائمـــة باللـــه، ومحاولاته المستمرة في الاقتراب من المولى عز وجل، وركونه إليه في حل كثير من المشكلات التربوية دون الاعتماد على نفسه وحده مهما كان علمه المكتسب أو خبرته في السلوك.

ثانيا: اكتشاف الفروق الفردية

لم تطل المسافة بين رؤية عينك وبين قراءة اعتراف الصوفية بالفروق الفردية لدى الطالبين وضرورة مراعاتها وتكليف المريد حسب استعداده وقدراته، وما نبهوا عليه من اختيار السالك وتفقده للوقوف على ميوله واتجاهاته الخاصة أو اهتماماته الذاتية، هذه الفروق التي قلما يخلو كتاب من كتب التربية الحديثة إلا وتصدى لها وبين صلتها بالتربية وتحكمها في علاقة الأستاذ بالطالب.

وقد نبه عليها الصوفية مسبقًا ولمسوها بوضوح ولم يزد المحدثون على ما قاله الصوفية جديدًا، فإذا نادى إيرل بولياس، وجيمس يونغ من أنه يجب على المعلم أن يعرف أين تلاميذه في تفكيرهم وإحساساتهم؟ لكي يتمكن من الاتصال بهم، أو امتدحا المعلم الذي يواجه حقيقة ما عليه الناس في مراحل ودرجات مختلفة، ويراعي الطلاب في قوتهم وضعفهم، ويضع إمكانات كل واحد منهم في مكانها الصحيح أو أشادا بالمعلم قوي الشخصية والملاحظة والإدراك.

والذي يرى الطاقة الكامنة في الطالب، ويحترم الكائن البشري بحسب استعداده وتميزاته على اختلافها، ويؤمن بالطاقات الإنسانية الوفيرة في الطلاب الذين يعمل معهم وبأن التعليم على أفضل الافتراضات كان دومًا في جوهره الوسيلة لاستنباط أفكار الطلاب وإطلاقها وتطويرها، إذا أعلن هذان مثل هذه التصريحات والتقريرات التربوية الحديثة ووافقهما كُتَّابُنَا من التربويين مبينين كذلك أصناف الفروق المزاجية والعقلية وصلتهما بالفروق وتمييزها، والتي تتجلى في عملية إبداع المعلم بطاقات التلميذ وتنشيطها، وتطويرها، وتشجيع من هم أكثر ذكاء وعقلاً على الابتكار.

كما تتمثل الفائدة أيضًا في إدراك المدرس للعقبات النفسية والاجتماعية التي تعرقل تقدم التلميذ، والعمل على طرحها لتحل محل معارف أكثر نفعًا للتلميذ، إذ

ملـــئوا كتبهم بهذا كلـــه فإن الصوفية قد سبقوهم في هذا المضمار كذلك، وفي التنبـــيه على ضرورة مراعاة الفروق الفردية وتربية الطالب على أساسها ويمكنك الـــتحقق من ذلك بنفسك إذا رجعت إلى الفقرات التي تحدثت عن آداب الشيخ مع المريد وعلاقته به[1].

وأود أن أضـــع بعض الفروق بين قياس القدرات الفردية عند المريدين وبين قياســـها لـــدى التلاميذ المعاصرين حيث نجد أن العلم قد خدم أقيسة الذكاء في عصرنا عما كان عليه الصوفية وقت أن نبهوا على ضرورة اعتبار الفوارق الذاتية، فمنذ أن نشر ألفردبينيه أول مقياس للذكاء باسمه عام (١٩٠٨) والعلماء يهتمون بهذا الموضوع ويبتكرون بين الحين والحين مقياسًا جديدًا، ولكن الصوفية لم تقدم إليهم هذه المقاييس و لم يهتموا بوضعها، وإنما استغنوا عنها بالملاحظات الخارجية والباطنـــية للمريد، وبما لدى الشيخ من بصيرة قلبية يمكن أن يدرك بها ما بداخل السالك من حيث لا يشعر ولا ينطق أو يتحرك.

والحق يقال: إن مقياس الخبرة السلوكية عند الشيخ وميزان الكتاب والسنة، والملاحظة البصيرية هي كلها أدق من الموازين العلمية الحديثة بكثير، ولقد أثمرت ثمـــارًا تعجز عنه التربية الحديثة في أيامنا، هذا بالإضافة إلى أن الشيخ كان متفرغًا للعملـــية التربية، ومتجردًا لها، وعلى صلات وثيقة ومستمرة بتلاميذه، والمصارحة بيـــنهم وبيـــنه دائمة وواضحة مما يجعل اكتشاف الفروق ممكنًا ودقيقًا بعكس ما يحـــدث في عصرنا فإن كثافة الفصول وكثرة أعباء المدرس، وضعفه تجعل المعلم يعجز كثيرًا جدًّا عن تتبع الفروق الفردية وإظهارها ومعاملة التلميذ على ضوئها.

---

(١) إيريل يونغ: المعلم أمة في واحد: ٣٥، ٨٢، ٩٢، ١٠٨، ١٤٧، ١٥٩، ١٦١، والتربية وطرق التدريس للأستاذ صالح عبد العزيز: ج١: ١٣٢ – ١٦٦.

ثالثا: التقويم والتتبع

استَعِدْ معي ما جاء في المراحل الأربعة من الفقرة رقم (٢) من الأدب الخاص للتربية، والمراحل الخمسة التي في الفقرة رقم (٣) من نفس الموضوع تجد أن علاقة المربي بالطالب والخبرة واضحة تمام الوضوح وأن التقويم مستمر من الأستاذ للمريد، وهو مبدأ مقرر كما هو بارز في هذا الفصل كله عند الصوفية الذين سبقوا به كذلك رجال التربية المحدثين.

وإنك لو وضعت كلام الصوفية في كفة وقول بعضهم: إن المعلم الناجح هو الذي يبذل قصارى جهده ليجعل التقدير والتقييم جزءًا من عملية التعليم وهو ذو أهمية مشتركة للمعلم والطالب على حد سواء، فالتقييم ليس لعبة قاسية أو حربًا بين المعلم والطالب بل هو وسيلة صادقة، الغاية منها إيجاد الجواب الصحيح عن هذا السؤال وهو ما مدى التقدم الذي حققناه نحو أهدافنا المشتركة؟ لو وضعتهما معًا على كفتي ميزان لوجدت أقوال رجال الطريق أدق لأنهم لم يجعلوا عملية التقويم في بيئة أو مدرسة أو مرحلة ولا تتناسب في غيرها وإنما وضعوا برنامجهم للتقييم والتقويم معًا يصح أن يطبق على كل النفوس في كل الأزمان على سعة البيئات واختلافها، ومن المستحسن أن تستذكر الفقرتين المشار إليهما مع ما جاء عن التقويم في التربية العامة لتدرك أيهما أصوب وأنفع، وأدق وأجلى.